رسالتنا

تقريب الفكر و توحيد العمل

محمد علي التسخيري


بسم الله الرحمن الرحيم



رسالتنا

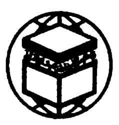
تقريب الفكر

وتوحيد العمل

محمد علي التسخيري



تسخيری، محمدعلی
رسالتنا تقريب الفكر وتوحيد العمل/ محمدعلي التسخيري . -- تهران: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية المعاونية الثقافية ۱۴۲۶ق. - ۲۰۰۵م. -۱۳۸۴.
۱۹۲ ص.
ISBN 964 - 8889 - 04 – x: ۱۱۰۰۰ ریال
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا عربی.
۱. تقریب مذاهب. ۲. وحدت اسلامی. ۳. اسلام و اجتماع. ۴. اسلام و سیاست. الف. مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی. معاونت فرهنگی. ب. عنوان.
BP ۲۳۳/۵/ت۵ر ۲۹۷/۴۸۲
کتابخانه ملی ایران ۲۰۰۴۲ – ۸۴م



المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

اسم الكتاب: رسالتنا .. تقريب الفكر وتوحيد العمل

المؤلف: محمد علي التسخيري

الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ــ المعاونية الثقافية

الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هــ . ق ــ ٢٠٠٥م

الكمية: ٢٠٠٠ نسخة

السعر: ١١/٠٠٠ ريال

ردمك: ISBN 964 – 8889 – 04 – x

العنوان: الجمهورية الإسلامية في ايران / طهران

ص . ب : ٦٩٩٥ ــ ١٥٨٧٥

تلفكس ٤-٠٩٨٢١٨٨٣٢١٤١١

المحتويات

عنوان المقاله　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحه

الفصل الثالث : فكرة عن رواد الوحدة الإسلامية والتقريب

الفصل الرابع : آراء وتعقيبات

المقدمة

الوحدة الاسلامية

الوحدة الاسلامية اطروحة تعبر عن هدف ايديولوجي وزمني مقدس، كما انها اطروحة شاملة ذات ابعاد متعددة، الا ان الملابسات التاريخية والاجتماعية الخاصة اضفت عليها نوعاً من التحديد فصارت ـ الوحدة الاسلامية ـ عبارة يفهم منها البعد المذهبي والعلاقات المذهبية بين المسلمين خاصة، مع انها في الأصل عبارة شاملة تستوعب مختلف جوانب الحياة الاسلامية، ثقافية وسياسية واجتماعية... الخ.

صحيح ان حل المسالة المذهبية له دور أساس في اقامة الوحدة الاسلامية، لكن الظروف الجديدة، جعلت الجوانب الاخرى من الوحدة، كالجانب السياسي والاجتماعي والثقافي لا تقل اهمية عن الجانب المذهبي.

فالوحدة السياسية على صعيد البناء الداخلي للدولة، وعلاقات الاسلاميين فيما بينهم، والوحدة الاجتماعية على صعيد العلاقات القومية والوطنية، والوحدة الثقافية على صعيد الفكر وابعاده المختلفة في الحياة الجديدة ضرورات اساسية لا يمكن التحدث عن الوحدة الاسلامية دون الاستجابة لها وتنفيذ متطلباتها.

الامر الذي يحتم تطوير افاق البحث في الوحدة الاسلامية وإشراك خبراء السياسة والاجتماع والثقافة فيه اضافة الى خبراء المذاهب.

تطور فكرة الوحدة في الجمهورية الاسلامية

الوحدة الاسلامية فكرة صاحبت الثورة الاسلامية منذ أيامها الاولى، وانبثقت من عمق جذورها الفكرية والسياسية والاجتماعية، الامر الذي انعكس على مرحلة ما بعد الانتصار في صورة اعطاء اكبر ما يمكن من الجهد في مجال السعي لتحقيق الوحدة بين المسلمين، وتحويل الشعارات الى واقع حي متحرك بزخم وفاعلية كبيرين وخطوات عملية متلاحقة. ففي البدء، اعلنت الفترة الواقعة بين (١٢ ـ ١٧ ربيع الاول) من كل عام هجري اسبوعاً للوحدة الاسلامية، يحتفل فيها المسلمون بذكرى الميلاد النبوي الشريف، ويعيشون الوحدة الاسلامية فكرياً وروحياً همّاً عميقاً يملك عليهم ابعاد وجودهم. فالنبي الاعظم (ص) هو المؤسس لهذه الامة، ومن الطبيعي ان يستذكر المسلمون وحدتهم عند ذكرى ولادته (ص)، خلافاً لما كان عليه الحال قبل الثورة الاسلامية حيث كان اختلاف المؤرخين في تحديد يوم ولادة النبي (ص) بين الثاني عشر والسابع عشر من شهر ربيع الاول مظهراً من مظاهر الاختلاف بين المسلمين (السنة والشيعة).

وضرورات الوحدة الاسلامية جعلتها تتصدر أولويات هموم المسلمين، وتفرض نفسها اساساً لاعادة بنائهم الذي صدّعته الخلافات الفكرية والعقيدية وما أفرزته من اجتهادات متباينة. الا ان الوحدة باعتبارها مشروعاً لا يمكن ان تتحقق مصداقيتها على أرض الواقع ما لم تتوافر على آلية متقنة وادوات فاعلة، اضافة الى اجراء مراجعة تفصيلية لبعض مقولات المذاهب الاسلامية، واعادة النظر في بعض فواصل نظامهم المعرفي، ومن هذا المنطلق باتت مؤتمرات الوحدة الاسلامية تسير بهذا الاتجاه، حيث اخذت تطرح محاور فكرية تعالج اشكاليات مذهبية مستعصية من خلال دراسات تفصيلية وشاملة، فقد سلط المؤتمر العالمي الثامن للوحدة الاسلامية ـ مثلاً ـ الضوء على ثلاثة محاور مهمة هي:

ـ الكتاب.

ـ السنة.

ـ الثابت والمتغير في ضوء الكتاب والسنة.

وتتابعت المؤتمرات لدراسة المشاكل المشتركة للامة وكان منها (تحدي العولمة) و (قضية الصحوة الاسلامية) و (استراتيجية التقريب) وجاء هذا الاسلوب الجديد في الطرح ايماناً منه بضرورة الوحدة الفكرية اساساً لوحدة المسلمين العملية.

والوحدة الاسلامية بمفهومها الحقيقي الذي يتجاوز كل الفوارق الطبقية، والعنصرية، واللونية، والجغرافية، وغيرها، هو حلم المسلمين اليوم في شتى اقطار الارض، وهو نداء القرآن العزيز يهز كل الغيارى اينما كانوا ليسعوا الى تحقيقه، وهو بالتالي الهاجس الذي يقضّ مضاجع الاستكبار العالمي ويرعبه، وهو حلم فكيف به اذا تحقق، واستيقظ هذا العملاق الغافي (كما تصفه بعض كتابات المفكرين الاستعماريين) الممتد من المحيط الى المحيط والذي له قدرة هائلة تمتلك كل عناصر القوة،

فارضه اكثر من ٣٥ مليون كيلو متر مربع، ونفوسه تتجاوز المليار انسان مضح يؤمن بان الموت في سبيل الله سعادة، له من الخبرات العاملة ما يتجاوز الـ(٢٥٠) مليون يد عاملة، وله من القدرات العسكرية الظاهرية ما يقارب الـ(١٠) ملايين انسان مدرب، ولديه أكثر من مائة ميناء استراتيجي على مختلف البحار والمحيطات، ويسيطر على أكثر مصادر النفط، والنحاس واليورانيوم وغيرها.

كل هذا في الجانب المادي، ناهيك عن الجانب المعنوي الضخم الذي تمتلكه هذه الامة متمثلا في رسالتها العظيمة التي تمتلك اعظم اطروحة لحل مشكلات البشرية والقضاء على التناقض بين المصالح الفردية والمصالح الاجتماعية، وهو امر عجزت عنه كل تلك الانظمة الوضعية الخاوية، فانها زادته حدة وسعاراً.

نعم، ان الاستكبار العالمي يخشى هذه الوحدة التي تبشر بها هذه الصحوة الاسلامية الكبرى، وعلينا ـ نحن المسلمين ـ ان نعد لهذه الخشية، فنزداد اصرارا على المسير، ونزيد من عزائمنا في سبيل هذه الوحدة الكبرى.

ومن هنا، جعلت الثورة الاسلامية شعار تحقيق الوحدة الاسلامية الكبرى في طليعة شعاراتها، وراحت تعمل بكل جهد على تحقيقها متجاوزة كل ما يزرعه الكفر العالمي في طريقها من عقبات، هازئة بكل التهم والدعايات، وكل ما يقوم به عملاء الاستكبار من اثارة للعنعنات والطائفيات وما تروجه الاقلام العميلة من روح قومية ممزقة، وشعارات وطنية مفرّقة، وغير ذلك.

ولهذا، وجدنا قادة الثورة الاسلامية ممن يتبنون هذا الخط المبارك ويدعون له بكل قوة من خلال لقاءاتهم وكتاباتهم وخطبهم ومواقفهم في الاوساط الفقهية والسياسية وعقد المؤتمرات واقامة للمؤسسات المتخصصة منطلقين بذلك من وعيهم للاسلام العظيم، ولخصائص الامة الاسلامية، وللظرف المحيط بهذه الامة، واهتمامهم العالمي بالانسان والاسلام اينما كان. وما تأسيس القائد الكبير آية الله الخامنئي لمجمع التقريب بين المذاهب الاسلامية الا خطوة على هذا الطريق اللاحب.

واذا رأينا هذا الهجوم الشامل على الثورة وقادتها فانما يعبر ذلك عن حقد الكفر العالمي عليهم وعلى هذه الرسالة العالمية الكبرى التي اضطلعوا بحملها وتأكيدها.

اننا نعتقد ـ بكل وضوح ـ ان سبيلنا الحقيقي هو سبيل الوحدة الاسلامية الكبرى، ولذا فلن نضعف عن الدعوة اليها والاستجابة لنداء الامام القائد الكبير لتحقيقها، وكلما زاد أوار الحملة ضدنا فلن يزيدنا ذلك إلا اصرارا على اللقم وصبرا على مضض الألم وايماناً بالنصر المؤكد.

فالى الوحدة ايها المسلمون، ولتعلموا انها قدرنا ومستقبلنا الذي نريد ان نصنع،

وغدنا الامثل الذي لامحيد عنه، ولنجعل قضايانا التي نشترك فيها جميعا ولانختلف مطلقا في مجالها منطلقا للموقف الموحد في جميع المجالات الحياتية.

ان المسلمين جميعاً ينطلقون من اصول العقيدة الاولى، ويرجعون الى المنبعين الرئيسيين، الكتاب الكريم، والسنة الشريفة، ويؤمنون بالاسلام منهج حياة. وما أروع هذه المنطلقات الواسعة اذا استوعبتها الامة واذا صممت على تحويل الايمان بها الى واقع قائم، وبالتالي لتكوين اللقاء الموحد في مختلف المجالات.

فليعمل المفكرون والمسؤولون، والواعون للتألمون لقضايا امتهم، العاملون على دفع مسيرتها الى الامام على تحقيق هذا الهدف الكبير عبر تعميق الاسس المشتركة للثقافة الاسلامية في وجود الامة وتوضيح مقتضياتها العملية.

ان الثقافة العامة يمكن تلخيصها – كما يقول المفكر الاسلامي (مالك بن نبي) في مطلع كتابه (مشكلة الثقافة) – بانها (لاتضم في مفهومها الافكار فحسب، وانما تضم اشياء اعم من ذلك كثيرا تخص اسلوب الحياة في مجتمع معين من ناحية، كما تخص السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية اخرى).

ووفق هذا التصور نستطيع القول بان الثقافة هي (الفكر والعمل الفردي والاجتماعي) وهما امران يصوغهما الاسلام ويطبعهما بطابع عالمي انساني لايتغير الا بتفاصيله. ومن هنا نجد:

اولا: ان الفكر الاسلامي اينما كان يتميز بالالهية والاتجاه نحو الله تعالى في كل الحالات، والتوكل عليه، واستمداد الهدى منه.

ثانيا: ان الحياة الفردية والاسرية والاجتماعية للمسلم تتشكل بمقتضى التعاليم القرآنية حتى انك لتجد المسلم العادي في مختلف احواله وبمستوى ثقافته يتمتم بالآية الكريمة او الحديث الشريف ليفسر وضعه الذي يعيشه من نعمة او بؤس او فرح او حزن.

ثالثا: ان الحياة التعبدية بالمعنى الخاص للعبادة واحدة في الشكل والمضمون واللغة ـ وان اختلفت اللهجات ..

رابعا: وحدة المشاعر والاحاسيس والعواطف تجاه المفاهيم والحوادث.

خامسا: وحدة الطرق العامة للعيش، المأكل والملبس والسلوك الفردي والاجتماعي، وان اختلفت التفاصيل.

سادسا: الشعور العام لدى المسلمين بالترابط الكوني والتشريعي، فالظلم نتيجته الانهيار الحضاري، والشكر نتيجته الرخاء والعزة ـ مثلا ـ.

سابعا: التوازن العام في الشخصية لدى المسلم، فلا هو جبري ولاهو تفويضي، بل هو يدرك – مهما كان ساذجا – انه مسؤول عن ما يفعل فهو حر، ولكنه يدرك ايضا دور الارادة الالهية في مسيرته العامة.

ثامنا: الايمان الفردي بالواجبات الاجتماعية تجاه المسلمين جميعا، والايمان الاجتماعي تجاه كرامة الفرد وحديثه.

تاسعا: الايمان بالفطرة الانسانية وتميز الانسان عن الحيوان والجمادات، مما ينتج مقولات انسانية كالحق والخلق والعدالة ويفرزها عن الحياة الحيوانية.

وهكذا نستطيع ان نستمر في تعداد هذه المشتركات الثقافية. وليس ذلك الا لوحدة الاسس المعرفية لدى المسلمين.

فلنعمل على تقوية الاسس، وتوضيح ما ينبثق منها، وتركيزه في نفوس المسلمين ليتحقق التقريب.

والتقريب الفكري هو من اهم ما يجب التركيز عليه، وذلك تقوية لوحدة المواقف العملية، وهو ما نستهدفه في هذا الكتاب.

الفصل الاول

التقريب

مفهومه، واسسه، واخلاقياته



الواقعية الاسلامية

من اشمل الصفات التي تحلى بها الاسلام الواقعية بمعناهـا الايجابي. ويعني الاعتراف بالواقع الانساني ووضع الخطط العملية لتطويره الى الحد الممكن في ضوء العلم الالهي به وبمكوناته وحاجاته ومشكلاته، مع ضمان العدالة في اشباع كل ذلك، في قبال المعنى السلبي الذي يتلخص في التسليم للواقع القائم والانسجام معه كيفما كان، وفي قبال الطوبائية والمثالية التي لاتمت للواقع بصلة.

ومن هنا جاءت الصفات الاسلامية العامة الأخرى - لتعبر عنها - وهي الفطرية والتوازن، والمرونة، والشمول، والوسطية، والعالمية، وغيرها، بعد ان كان الاسلام خاتم الاديان والمكمل لها، والبرنامج النهائي لكل المسيرة الى يوم القيامة.

ومن هنا بالتحديد جاء التخطيط الاسلامي للعلاقة بين افراد الامة فكرياً وعملياً.

واذا كانت الساحة الفكرية الانسانية لاتنسجم مع فكرة الوحدة الا في خصوص الأطر الفطرية العامة والثوابت فيها ولوازمها ومقتضياتها القطعية، ولاتتجاوزها للتفاصيل الا نادرا، فان الموقف العملي للأمة من قضاياها الرئيسة بدوره لايتحمل اي تمزق او خلل او ضعف مطلقا.

فجاء التخطيط الاسلامي مؤكدا على **الوحدة الحقيقية في المجال العملي** عاملا على ان تساهم في تحقيقها عناصر مهمة منها:

١- ذلك التوافق على الاصول النظرية العامة الذي اشرنا اليه على التو.

٢- وحدة الخطاب القرآني والنبوي لمجموع افراد الامة دونما تمييز بين المؤمنين.

٣- وحدة المسؤولية المشتركة والولاية العامة المتبادلة في مجال ادارة الامور.

٤- وحدة التشريعات والقوانين الحياتية بما فيها من تخطيط شامل للاشعار بوحدة الامة كوحدة الاتجاه والنشيد العبادي، ووحدة التكافل الاجتماعي والاقتصادي والحقوقي وغيره.

٥- وحدة المشاعر والاحاسيس والسلوكات الاخلاقية الانسانية مما يؤدي الى تآلف القلوب، ونفي الضغائن وبث الثقة والالتزام المتبادل بالحقوق، وبالتالي لتعميم مبدأ الاخوة الايمانية بكل ما يصاحبه من تعاون وايثار ونسيان ذات.

٦- وبالتالي التذكير المتكرر للامة كل الأمة بالعدو الذي يتربص ويرصد تحركها ويتحين الفرص لسلب هويتها بل ومحو وجودها، والذي لايرعى اية قيمة في ذلك، وتذكيرها بان هذا العدو نسي كل خلافاته واتحد لدحر هذه الامة فاذا لم تفعل هي ذلك كانت الفتنة وكان الفساد الكبير.

اما في المجال الفكري فلم يعتبر الاسلام اختلاف وجهات النظر مشكلة بل هي حالة طبيعية الى الحد الذي يحدثنا فيه القرآن عن اختلاف الانبياء انفسهم، فيقول القرآن الكريم (وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) [1] وقد يؤدي انكشاف الحقائق العلمية الى هذا الاختلاف كما في خبر موسى (عليه‌السلام) مع العبد الصالح.

ولكن الاختلاف المسموح به فكريا له حدوده وضوابطه، فيجب:

١- ان لايمس الاصول والاسس الثابتة بالفطرة والقضايا الثابتة بالدليل القاطع بشكل يؤدي التشكيك فيها الى التشكيك باصل الاسلام، لان ذلك يعني الخروج من الدائرة الاسلامية.

---

(١)الانبياء: ٧٨ و ٧٩.

٢- ان يعتمد الدليل والبرهان، ويبتعد عن اطلاق الاقوال على عواهنها، وهذا ما نشهده اليوم من بعض القراءات الحديثة التي تفسر الشريعة وفق اهوائها واستحساناتها ومصالحها.

٣- ان ينتهج منهج الحوار المنطقي السلمي المنتج عمليا في جو موضوعي دونما تهويل او خداع وعلى بصيرة من الموضوع وكفاءة من المتحاورين وبالتي احسن ومع احترام متبادل.

فيحترز بشدة عن:

أ ـ ان يدخل في الحوار من لايملك مقدماته العلمية.

ب ـ ان يعتمد عنصر الجدل والماطلة والخداع.

ج ـ ان تفرض اجواء التهويل والارعاب والاتهام والتكفير والاهانة.

د ـ ان ينقل النزاع الى المجال العملي.

هـ ـ ان يحمل الطرف الآخر الا ما يدعيه وعدم مؤاخذته بلوازم قوله، فلعله ينكر الملازمة.

و ـ ان يدخل في مسار عقيم لاربط له بالواقع العملي.

٤- ان يتم السعي لاكتشاف الساحة المشتركة اولا، ثم العمل على توسعة الساحة المذكورة ثانيا، ثم التعاون على تنفيذ هذه الساحة ثالثا، وتبقى الساحة المختلف فيها ليعذر بعضهم بعضا.

ومن الجدير بالذكر ان هذا المعنى يمكن العبور به من الدائرة الاسلامية الى الاخرى الدينية عموما بل الى الساحة الانسانية الحضارية والثقافية عموما.

الاختلاف المذهبي:

وحينما نحاول ان ننظر الى الاختلاف المذهبي بهذا المنظار نجده امرا طبيعي الحصول، وقد اشار الكثير من المحققين الى ذلك بشكل مفصل وفي بحوث علمية معقدة.

فتحدثوا عن **ضرورة الاجتهاد في الشريعة** والتي تتاصل باستمرار، وذلك بملاحظة الامور التالية:

١- ان المصدر الاساس له هو الكتاب والسنة الشريفة. وواضح ان الشريعة بل وعموم التصور الاسلامي لم يُعطَ في صيغ وعبارات واضحة للجميع، وانما اعطيت في المجموع الكلي للنصوص بشكل يفرض الحاجة الى مقدمات علمية كثيرة، وجهد علمي واسع للمقارنة واستخراج النتائج بكل دقة وموضوعية.

٢- كلما ابتعدنا عن عصر النص زادت الحاجة الى هذه الجهود وتنوعت، وذلك لضياع عدد معتد به من الاحاديث، ونسيان ظروف صدور النص، وعدم نقل القرائن التي يحتمل انها كانت تحيط به، وتغير اساليب التعبير، ودخول كثير من الخطأ وربما الدس من المغرضين.

٣- ثم هذا التحول الكبير في اساليب الحياة، وهذا التعقد في الحاجات والعلاقات المتنوعة والمسائل المستحدثة التي لا نص فيها، مما يتطلب استخراجها من القواعد العامة او الاصول الفرعية او الاصول العملية التي اريد لها ان ترفع حالة التحير والتردد.

٤- اضف الى كل ذلك الحاجة الى اشخاص متخصصين بعمق يتفرغون لاستيعاب مختلف الجوانب الاسلامية ويتأهلون لقيادة عملية التطبيق الشاملة لكل جوانب الحياة منسقين بين جوانب الصورة الاسلامية العقائدية والعاطفية والسلوكية ليأتي الحاصل منسقا، كما يتأهلون للفصل في مسائل النزاع العملي وهي من لوازم التطبيق، ومن هنا كان الاجتهاد ضرورة حياتية مستمرة ـ كما اكد العلماء ذلك ـ ومن هنا ادرك اعداء الاسلام دور الاجتهاد في مرونة الاسلام وحفظ كينونة الامة، فراحوا يدعون الى محاربة الاجتهاد بحجة رفض سيطرة العلماء على المجتمع.

خطر الذاتية في الاجتهاد ووسائل التحوط:

وبطبيعة الحال فان الاجتهاد في الشريعة يحمل معه خطر (الذاتية) حيث تتدخل معه كل ما تملكه الذات التي تمارس العملية من سوابق ورؤى وذوق وزوايا نظر وقناعات، مما يجعل عملية الاجتهاد مختلفة النتائج لدى شخصين يمارسانها في مورد واحد ونصوص واحدة، مما يعني ان شيئا من المعطيات الذاتية اضيف للعملية بعد ان كانت النصوص تعبر عن حقيقة واحد وحكم واحد ـ في علم الله تعالى - رغم ان ما توصل اليه الشخصان من نتائج تعتبر حجة في حقهم وحق مقلديهم.

ومن هنا لايمكن ان تعد النتائج التي يحصل عليها الفكر *الاسلامي* هي الاسلام بعينه بشكل لايمكن النقاش فيه.

ولاياتي هذا المعنى حين تكون النصوص قطعية السند وقطعية الدلالة، فلا اجتهاد هنا، وانما يقع حينما يدخل الظن والاحتمال. ويرتفع خطر الذاتية الى مستوىً اعلى حينما تمارس العملية الاجتهادية على مستوى اكتشاف المذهب الاسلامي اكثر منها حينما تمارس على مستوى اكتشاف الاحكام الفردية.

ويرجع الامام الشهيد الصدر هذه الظاهرة الى منابع اهمها:

١- تبرير الواقع الذي يعيشه المجتهد دون ان يشعر بذلك.

٢- دمج النص ضمن اطار خاص.

٣- تجريد الدليل الشرعي من ظروفه وشروطه.

٤- اتخاذ موقف مسبق تجاه النص.[1]

وهذه هي النقطة التي يسعى من خلالها المشككون في الفكر الاسلامي، والداعون لرفض الاجتهاد للنيل منه وحذف دوره في الحياة وتقليص تأثير المجتهدين فيها بحجة انها منطقة غير معصومة ولامقدسة.

---

(١) اقتصادنا ج٢ ص ٣٨٤ من طبعة مشهد.

والحقيقة - كما مر - ان هناك مساحة مقدسة لايمكن ان تنالها يد المعتدين وهي منطقة النصوص القطعية سندا ودلالة بما تتضمنه من احكام ومفاهيم قطعية، وهناك في المساحة الظنية ايضا ما دلت عليه الادلة القطعية، كادلة حجية الظهور وغيرها، ما يوفر لنا مساحة كبيرة مصونة من اي تطاول عليها.

كما ان العلماء احتاطوا للمساحة الظنية كثيرا لتقليل خطر الذاتية الى الحد الممكن بعد ان لم يكن مناص من سلوك سبيل الاجتهاد، فهو حالة طبيعية لتفسير اي قانون او نص.

ومن هنا جاء علم اصول الفقه بقواعده الدقيقة التي تضبط العملية الاجتهادية من خلال:

أ - بحوث الادلة المحرزة للواقع الشرعي الشاملة للدليل الشرعي اللفظي وبحوثه المفصلة عن الوضع، والصيغ اللفظية، والدلالات، وحجية الظهور وتطبيقاتها.

ثم البحث عن الادلة العقلية والعلاقات القائمة بين الاحكام في نفسها، ومع موضوعاتها ومتعلقاتها ومقدماتها.

ب - بحوث الاصول الشرعية المطروحة لحل الموقف عند غياب الدليل المحرز للواقع بما تشمله من بحث عن منجزية العلم الاجمالي، والاستصحاب.

ج - بحوث تعارض الادلة: وهي بحوث غنية مفصلة .

وبعد مرحلة اصول الفقه تاتي البحوث الفقهية المنضبطة بضوابطها الدقيقة.

وقد اضاف بعض العلماء - بحق - موضوع الاعتناء بالمقاصد الشرعية التي علمت من الشريعة لما لها من دخل في عملية الاستنباط.

ويمكن ان نضيف الى ذلك مسالة ملاحظة الصفات الاسلامية العامة المسلمة للاسلام من قبيل:

الواقعية والفطرية، والتوازن، والشمول، والخلود، والخاتمية ، والوسطية، والترابط، والعالمية وامثالها.

وعلى اي حال، فانه لم يبق مجال للتقليل من دور الاجتهاد في عملية معرفة الشريعة الاسلامية وتطبيقها.

نشوء المذاهب الاسلامية

ومن الواضح انه لم يكن هناك شديد حاجة للاجتهاد في عصر الرسول(ص) بعد ان كانت الاحكام والمفاهيم تؤخذ مباشرة منه، وربما اجتهد بعض الصحابة فاقرهم الرسول على ذلك.[1]

وكان الاختلاف بسيطا، وعندما اتسعت الرقعة الاسلامية نزلت اية النفر التي قررت واقعا وشرعت اساسا للاجتهاد وحجية خبر الواحد، فقال تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون).[2]

ولكن وتيرة الاجتهاد ارتفعت بطبيعة الحال بعد وفاة الرسول(ص) وهكذا استمرت بشكل اشد في عصر التابعين الا ان المذاهب لم تظهر بشكل واضح و محدد المعالم الا بعد هذا العصر.

ويرى الاستاذ السياس ان العالم الاسلامي شهد منذ اوائل القرن الثاني وحتى منتصف القرن الرابع ١٣٨ مدرسة ومذهبا فقهيا، حتى ان الكثير من البلدان كان يمتلك

١ـ كما في حديث معاذ عندما بعثه رسول الله (ص) الى اليمن وقال له: بما تقضي اذا لم تجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله؟ قال معاذ: (اجتهد رايي ولا آلو). وان ناقش بعض العلماء في ذلك (راجع اصول المظفر ج ٣ ص ١٦٦).

٢ـ التوبة: ١٢٢ .

منهبا خاصا به[١] ، في حين ذكر الاستاذ اسد حيدر انها كانت تزيد على الخمسين[٢] .

وكانت هذه المذاهب التي ظهرت بعد طبقة التابعين ـ كما يرى بعض العلماء ـ مذاهب فردية لم تتبنّ من قبل أتباع اصحابها، ولذلك انقرضت بانقراض أتباعها، واخرى جماعية نضجت في ظل ما دوّنه أصحابها واتباعهم في مجموعات متكاملة.[٣]

ومن المذاهب البائدة.

١ ـ مذهب الحسن البصري (٢٣ ـ ١١٠هـ)

٢ ـ مذهب ابن ابي ليلى (٧٤ ـ ١٤٨هـ)

٣ ـ مذهب الاوزاعي (٨٨ ـ ١٥٧ هـ)

٤ ـ مذهب سفيان الثوري (٩٧ ـ ١٦١هـ)

٥ ـ مذهب الليث بن سعد (توفى عام ١٧٥هـ)

٦ ـ مذهب ابراهيم بن خالد الكلبي (توفى عام ٢٤٠هـ)

٧ ـ مذهب ابن حزم داوود بن علي الاصبهاني الظاهري (٢٠٢ـ٢٧٠هـ)

٨ ـ مذهب محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ـ ٣١٠هـ)

٩ ـ مذهب سليمان بن مهران الاعمش (توفى عام ١٤٨هـ)

١٠ ـ مذهب عامر بن شرحبيل الشعبي (توفى عام ١٠٥هـ)

وغيرهم كثير.

اما المذاهب التي استمرت مع الزمن وحتى اليوم فهي:

١ ـ المذهب الامامي الاثنا عشري، وقد وسّع معارفه الامام الباقر والامام الصادق من اهل البيت(ع).

٢ ـ المذهب الزيدي.

---

١ ـ تاريخ الفقه الاسلامي ص ٨٦.

٢ ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة ج ١ ص ١٦٠.

٣ ـ طبقات الفقهاء: القسم الثاني من المقدمة ص ٥٧.

٣ـ المذهب الحنفي.

٤ـ المذهب الشافعي.

٥ـ المذهب المالكي.

٦ـ المذهب الحنبلي

٧ـ المذهب الاباضي.

ولسنا في صدد البحث عن مقدمات نشوء المذاهب، ولا عن عوامل الانقراض او الانتشار، وهي عوامل علمية وموضوعية ذكرها العلماء عند البحث عن عوامل الاختلاف.

فذكر ابن رشد[1] ما يرتبط بتنقيح صغريات حجية الظهور او حجية القياس، واضاف اليها السيد الحكيم[2] الخلاف في الاصول ومباني الاستنباط، ويمكن ان نضيف اليه الخلاف في مناهج الاستدلال ومراحله.

وبالاضافة الى هذه العوامل الموضوعية يمكن تصور عوامل معرفية ذاتية من قبيل سعة المعلومات وضيقها، وعوامل نفسية وفردية كمدى القدرة على التحليل الذهني، وكذلك لايمكن ان نغفل دور العوامل السياسية والتاريخية والمصلحية والاجتماعية وغيرها ، الا ان الاهم من ذلك في بحثنا هذا هو ذكر النقاط التالية:

اولا : لقد كان ظهور المذاهب تعبيرا عن تطور في العقلية الاسلامية سدا لفراغ غياب الرسول الاعظم(ص) وانقطاع الوحي من جهة، وتوسع الحاجات، وكثرة الحوادث، وتعقد المجتمعات من جهة اخرى، وربما لتراكم المعارف الفقهية وانطراح الفروع المتصورة من جهة ثالثة. فهي اذن حالة طبيعية صحية حضارية.

ثانيا : وهذه المذاهب تشكل ثروة فكرية غنية للحضارة الاسلامية لايستهان بها ،

١ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد ـ المقدمة ـ .

٢ـ اصول الفقه المقارن ص ١٩ .

كما تمنح الحاكم الاسلامي كما الفرد المسلم مساحة للاختيار الافضل في مجال عملية تطبيق الشريعة في الحياة الفردية (خصوصا اذا لم يتعين تقليد الاعلم) والاجتماعية باعتبار ان الراي الذي ينتج عن عملية اسلامية معترف بها وهي الاجتهاد تصح نسبته الى الاسلام، وحينئذ ينفتح امام الحاكم الشرعي مجال واسع للمناورة وانتخاب الاصلح من الآراء مما يحقق المصالح (حتى لو لم يتفق الحاكم مع الراي في اجتهاده الشخصي) بل يمكنه ان يقوم بعملية توفيق وتركيب بين الآراء للوصول الى النظرية والمذهب الاجتماعي الاصلح مما يعبر اصدق تعبير عن المرونة الاسلامية.[1]

ثالثا: هذه المذاهب ـ كما قلنا ـ شكلت غنى للحياة الاسلامية وحالة طبيعية كان الوصول اليها متوقعا، الا ان الذي حوّل هذه الظاهرة الطبيعية الى ظاهرة سلبية على المسيرة الاسلامية هو ما نسميه بالتحول الى الطائفية الضيقة، حيث سعت هذه الروح الطائفية للابتعاد عن الحوار الذي دعى اليه القرآن الكريم، ونسيان حالة التسامح والمداراة الاسلامية، والخوض في جدال عقيم في بعض الاحيان وممقوت اخلاقيا. ورحنا نشهد فترات مريعة واساليب لا اسلامية من التكفير والتفسيق والتبديع ـ كما يعبر الشيخ القرضاوي[2] ـ مما ادى بعد ذلك الى نزاع عريض سالت على اثره انهار من الدماء والدموع، مما مزق الامة وازالها عن موقعها الحضاري المطلوب.[3]

ومن هنا فنحن ندعو بجد لاعادة الحالة المذهبية الى وضعها الطبيعي عبر اشاعة روح الحوار الاسلامي البناء، والتآلف القلبي، والبحث عن المساحات المشتركة، وهو ما نعبر عنه بـ(حركة التقريب بين المذاهب الاسلامية).

١ـ وهذه بحوث علمية قمنا بطرحها في مجامع فقهية رفيعة المستوى ونشرناها من قبل ولاداعي هنا للتفصيل (تراجع تقريرات المؤلف عن بحوث مجمع الفقه الاسلامي، وقد بلغت لحد الآن اربعة مجلدات).

٢ـ مجلة رسالة التقريب العدد ٣٦ ص ٢١٠.

٣ـ راجع كتاب قصة الطوائف للانصاري ص ١٥٥ ـ فما بعد.

حركة التقريب بين المذاهب الاسلامية

ان ما اطلق عليه اسم (حركة التقريب) في العقود الاخيرة يمتلك جذورا تمتد الى اقدم العصور الاسلامية، لانها تستمد اصالتها وحيويتها من اصول الشريعة الغراء، وتتوضح ضرورتها كلما اتسع نطاق مسؤولية هذه الامة في صنع الحضارة الانسانية او الاسهام الفاعل فيها على الاقل .

وقد نجحت في الفترة الاخيرة في التحول الى استراتيجية فاعلة.

لقد وضع علماء وشخصيات كبيرة في اواخر الاربعينات من القرن الميلادي الماضي اللبنات الاولى لهذه الحركة المباركة، وجاهدوا حقاً في تبيين معالمها، وكتبوا العديد من المقالات لترسيخها في النفوس ، بعد ان اصّلوها وبينوا جذورها الشرعية وضرورتها المتنامية.

ونحن سعداء حقاً اذ نجد هذه البذرة قد نمت وتحولت الى شجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين بإذن ربها.

الاسس

اننا نعتقد ان الايمان بمسالة (التقريب) يتاتى بكل منطقية اذا لاحظنا الاسس التالية التي تؤمن بها كل المذاهب الاسلامية دون استثناء وهي:

اولاً : الايمان باصول الاسلام العقائدية الكبرى وهي: التوحيد الالهي (في الذات والصفات والفعل والعبادة) وبالنبوة الخاتمة لرسول الله(ص) والقرآن الكريم الذي جاء به وما فيه ، والمعاد يوم القيامة .

ثانياً : الالتزام الكامل بكل ضروريات الاسلام واركانه من الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها.

ثالثاً : الالتزام الكامل بان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران

الاساسيان لمعرفة راي الاسلام في شتى الامور، المفاهيم (عن الكون والحياة والانسان، ماضيه وحاضره ومستقبله في الحياتين)، والاحكام والشريعة التي تنظم حياة الانسان وسلوكه الفردي والاجتماعي.

اما الاصول والمصادر الاخرى كالعقل والقياس والاجماع وامثالها فهي لا تملك اية حجية الا اذا استندت الى ذينك المصدرين الكريمين واستمدت مصدريتها منهما.

فاذا ثبت عدم الاستناد في الاصل اليهما، فضلا عما اذا ثبتت مخالفة الرأي او المنقول عنهم للكتاب والسنة فانهما يرفضان لامحالة.

وقد صرح ائمة المذاهب جميعا بهذه الحقيقة بوضوح وانهم يستقون من هذين المصدرين لاغير.

فقد وردت روايات كثيرة عن اهل البيت(ع) تؤكد ذلك من قبيل قول الامام الصادق:

(كل شيء مردود الى الكتاب والسنة). [1]

ويقول الامام مالك بن انس:

«انما انا بشر اصيب واخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة»[2].

ويصرح الشافعي بما يقرب من هذا. [3]

رابعاً: الالتزام بان الاسلام سمح لعملية الاجتهاد باعتبارها عملية (بذل الوسع لاستنباط الحكم الشرعي من مصادره) ان تكون هي الموصلة لمعرفة الاسلام. كما انها تلعب دورها في تاكيد مرونة الشريعة وقدرتها على استيعاب التطورات الحياتية طبقاً لمعايير وضوابط معينة. وهذا يعني بالضرورة امكان ايجاد الصلة بين مختلف النتائج التي ادى اليها الاجتهاد، وبين الاسلام، حتى لوكانت مختلفة ومتضادة فيما بينها، وذلك

١ـ وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٧٩ وهناك الكثير مما يشابهه.

٢ـ جلاء العينين للآلوسي نقلا عن الشيخ ابن تيمية ص ١٠٧.

٣ـ نفس المصدر، ص ١٠٧.

لاختلاف الافهام وزوايا النظر والقناعات (وهو مايدرس في العلوم الاسلامية تحت عنوان: اسباب الخلاف).

واننا نرى ان الاسلام اذ سمح بذلك فلأنه دين واقعي فطري، فلا طريق لمعرفة اية شريعة ممتدة على مدى العصور ينقطع وحيها ويموت معصومها الا طريق الاجتهاد، رغم ان هذا الطريق يبتلى احياناً بالذاتية ويفرز آراء متخالفة قد لا يطابق بعضها واقع المراد الاسلامي في علم الله تعالى.

كما اننا نجد ان هذا الاسلوب المنطقي يعم استنباط كل الامور كالعقائد، والمفاهيم (وهي تصورات تقوم على اساس العقائد من جهة، وتتصل بالواقع مباشرة من جهة اخرى، من قبيل مفهوم الخلافة الانسانية لله تعالى) والاحكام، بل وحتى المواقف الاسلامية من بعض القوانين الطبيعية.

خامساً: ان مبدا (الوحدة الاسلامية) يعبر عن خاصية مهمة من خصائص هذه الامة المباركة، وبدونها لا يمكن لها ان تدعي اكتمال هويتها. وقد وضع الاسلام خطة متكاملة لتحقيق هذه الوحدة بانياً لها على اساس الاعتصام بحبل الله المتين (وهو كل سبيل معصوم يوصل الى الله) ومؤكدا على وحدة الاصل والخلق ووحدة الهدف ووحدة الشريعة والمسير، داعيا اياها للدخول المجموعي في اطار التسليم الكامل لله ونفي خطوات الشيطان، ومذكرا بآثار الوحدة، وغارساً الاخلاقية وعناصر التضحية بالمصالح الضيقة في سبيل الهدف العام، حاذفا كل المعايير المزّقة كاللغة والقومية والوطن والعشيرة واللون، مركزا على المعايير الانسانية كالعلم والتقوى والجهاد، ومؤكدا على لزوم تحرّي نقاط اللقاء.

ان الايمان بهذا المبدأ له مقتضياته التي سنشير اليها ان شاء الله تعالى فيما بعد، وهو يعد من ركائز حركة التقريب.

سادساً: مبدا الاخوّة الاسلامية، وهو جزء من الخطة التي اشرنا اليها اعلاه، ولكنا

آثرنا التركيز عليه لانه اهم جزء، ولانه ينظم مجمل العلاقات الاجتماعية في الاسلام، ولاننا نعتقد ان آثاره لا تقتصر على الجوانب الاخلاقية فحسب بل تتعداها الى الجوانب التشريعية، وتترك اثرها الكامل على عملية الاجتهاد نفسها، لكي لا نشهد في هذه الساحة احكاما تتناقض معه.

سابعاً: اعتماد منطق الحوار القرآني

نستطيع بعد التأمل في القرآن المجيد أن نكتشف أهم مقومات الحوار واخلاقياته بلا ريب، وهانحن نذكر اهمها فيما يلي:

أ. مقدمات الحوار:

هناك امور يجب أن تفرض مسبقاً حتى يتم الحوار، ومنها ما سمّاه قدماؤنا بـ(تحرير محل النزاع)[1] فان الحوار قد يكون مجرد مضيعة للوقت، اذ قد يظهر للمتحاورين بعد فترة طويلة انهما كانا يركزان حوارهما على محورين مختلفين لا على محور واحد، فيجب تشخيص المحور المدعو اليه، وهذا ما يمكن ان يستفاد من دعوة القرآن لان يكون الداعي على بصيرة من امره.

(قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين)[2].

ومنها: مسالة الاتفاق على مسلمات اولية. فان الحوار لن ينتج مطلقا اذا لم تكن هناك مبادئ متفق عليها مسبقا، وفرضيات مسلمة يرجع اليها المتحاوران مهما كانت اولية أو بديهية.. فمن المستحيل ان تصل الى نتيجة مع من ينكر البديهيات كان لا يؤمن

---

(١) راجع الكافية للجويني ص ٥٤٠، وقاموس الشريعة للسعدي ج ٣، ص ٦. وكتب اصول الفقه وغيرها.

(٢) يوسف: ١٠٨.

باستحالة اجتماع النقيضين او ارتفاعهما، او لا يؤمن بوجود قانون العلية او بوجود العالم خارج الذهن الانساني، فانك مهما استدللت بشيء فانه مستعد لإنكاره. ولا طريق ـ حينئذ ـ الا التنبيه على القضايا الوجدانية لأجل انتزاع اعتراف بها. ومن هنا نجد القرآن الكريم يرد على اولئك المنكرين للبديهيات بتنبيههم لخطأ ما يعتقدون وايقافهم امام تساؤلات فطرية، فعندما يؤمن المقلدون بمبدأ واحد وينكرون غيره وهو (التبعية العمياء للآباء) فانه لا يمكن الحوار. لذلك يتم تنبيههم عبر سؤال وجداني (لو انكم علمتم ان اباءكم كانوا مجانين فهل كنتم ستتبعونهم؟) ان الجواب سوف يكون بالنفي طبعا، وحينئذ تنطلق عملية الحوار من احد المبادئ المسلمة وهي (معيارية العقل).

يقول تعالى: (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون)[1]. ويقول تعالى: (وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون قل أولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه اباءكم؟ قالوا انا بما ارسلتم به كافرون)[2]. ان الجواب الطبيعي هو ان الأهدى هو المتبع.

ب ـ المتحاوران:

وهناك شروط يجب ان يتصف بها المتحاوران، منها ان يكونا على مستوى موضوع الحوار، فلا معنى للحوار حول موضوع لا تعلمه الاطراف، او لا يعلمه أحدهم، أو لا يتخصص فيه إن كان مما يتطلب التخصص، يقول تعالى:

(ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون)[3]. ويقول سبحانه (ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان

---

(١) البقرة: ١٧٠.

(٢) الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) آل عمران: ٦٦.

أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير)[١]. وهنا يقول احد العلماء: (ان يناظر مع من هو مستقل بالعلم ليستفيد منه ان كان يطلب الحق)[٢]. ومن هنا فنحن نعتقد ان طرح الاستدلالات العلمية في المجامع العامة مع اختلاف المستويات امر يجانب الصواب.

ومنها امتلاك الروح للموضوعية وصفة الانصاف، فالقرآن الكريم يخاطب الرسول الكريم ـ مع قوة ايمانه ـ طالبا منه ان يدخل الحوار بروح موضوعية فيقول: (وإنا او إياكم لعلى هدى او في ضلال مبين)[٣].

ويقول تعالى أيضا:

(قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين)[٤].

يقول صاحب المحجة عند التحدث عن شروط المناظرة:

الأول: (ان يقصد بها اصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق، لاظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره، فان ذلك مراء منهي عنه بالنهي الأكيد) ويضيف: (ان يكون في طلب الحق كمنشد ضالة يكون شاكرا متى وجدها، ولا يفرق بين ان يظهر على يده أو يد غيره، فيرى رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق)[٥].

نعم ان القرآن يعلم المسلم ان يستمع ويقيس الامور وبالتالي يتبع الاحسن.

(الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه)[٦].

ومما يذكر بهذا الصدد ان البعض اعترضوا على الامام علي بقوله للحكمين (انظرا فان كان معاوية أحق بها فاثبتاه وان كنت اولى بها فاثبتاني) فاعتبروه شاكا في نفسه،

---

(١) غافر: ٥٦.

(٢) المحجة البيضاء في احياء الأحياء للفيض الكاشاني، ج ١، ص ١٠١.

(٣) سبأ : ٢٤.

(٤) القصص: ٤٩.

(٥) المحجة البيضاء، ج ١، ص ٩٩.

(٦) الزمر: ١٨.

فقال لهم بان ذلك لم يكن شكا منه ولكنه اراد النصف وذكر الآية الشريفة: (وانا او اياكم...)[١].

ومنها مسالة احترام الراي الآخر واحترام قناعاته. ويبدو هذا المعنى من خلال ملاحظة لحن بعض الآيات من قبيل قوله تعالى:(ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدوا بغير علم)[٢].

وقوله تعالى: (قل لا تسالون عما اجرمنا ولا نسال عما تعملون)[٣].

وتبدو روعة التعبير عند ملاحظة عبارتي (اجرمنا) و(تعملون).

ويهوّن القرآن من التاثر للاعمال التي يراها احد الطرفين أمرا يبعث على الاستغراب، فيقول: (كذلك زيّنا لكل امة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون)[٤].

ج. موضوع الحوار:

والموضوع الذي يقبل الحوار يجب ان يكون عمليا، فاذا كان امرا خياليا او امرا يستحيل فهمه من قبل السامع فان الحوار لن ينتج شيئا ويجب اغفاله وعدم الاجابة على التساؤلات، او الاجابة بجواب مجمل وقطع الحوار، ومن هنا تاتي الآيات التالية: (يسالونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج)[٥].

(يسالونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربي)[٦].

---

(١) الاحتجاج للطبرسي، ص ٢٧٦.

(٢) الانعام: ١٠٨.

(٣) سبا: ٢٥.

(٤) الانعام: ١٠٨.

(٥) البقرة: ١٨٩.

(٦) الاعراف: ١٨٧.

(ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربي)[١].

(ويسالونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً)[٢].

ونفس الموقف يتخذه القرآن ممن يطرحون اموراً جدالية او هزلية.

وهكذا يجب الاهتمام بالقضايا العملية (فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)[٣].

يقول الامام الغزالي: (ان يناظر في واقعة مهمة او في مسالة قريبة الوقوع وان يهتم بمثل ذلك)[٤].

د. اجواء الحوار:

ولكي يترك الحوار اثره الجيد يجب ان تتوفر فيه امور:

منها: الاخلاقية، وقد ذكرنا امثلتها عند الحديث عن شروط المتحاورين.

ومنها: عدم التهويل، ومعه لا معنى للحوار المنطقي الحكيم.

ومن خير الامثلة على ذلك ماذكره القرآن الكريم من جو انفعالي صنعه المشركون امام الرسول العظيم(ص) متهمين اياه بالجنون، في مثل هذا الجو لا معنى للاستدلال على عدم الجنون، ولذا يطلب القرآن منه ان يعمل على حذف هذه الاجواء والتفرق ثم التامل. يقول تعالى:

(قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)[٥].

---

(١) الاسراء: ٨٥.

(٢) طه: ١٠٥.

(٣) الرعد: ١٧.

(٤) المحجة البيضاء، ج١، ص ١٠٠.

(٥) سبا: ٤٦.

هـ. منهج الحوار:

ويذكر القرآن الكريم معالم رائعة لهذا المنهج، منها مسألة المرونة وعدم الجمود في الأسلوب واختيار احسن السبل.

يقول تعالى: (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين)[١].

(وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن)[٢].

(ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن)[٣].

ومنها المنطقية والاستدلال الصحيح بحيث يسير البحث من المقدمات الى النتائج بشكل طبيعي دونما تحايل أو جدال عقيم. والنصوص التي تنهى عن الجدال والمراء كثيرة:

كقوله تعالى: (ما ضربوه لك الا جدلاً بل هم قوم خصمون)[٤]. في حين يدعو الى البرهنة كما في قوله تعالى: (قل هاتوا برهانكم)[٥] ويعلن النفور من حالات العناد ويضرب لها مثلاً في قوله:

(واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم)[٦].

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) اسراء: ٥٣.

(٣) العنكبوت: ٤٦.

(٤) الزخرف: ٥٨.

(٥) النمل: ٦٤.

(٦) الأنفال: ٣٢.

وقوله تعالى:

(وان منهم لفريقا يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب)[١].

ومنها حذف العناصر التي لا دخل لها في النتيجة وانما تثير التشنج فقط.

يقول تعالى:

(قل لا تسالون عما اجرمنا ولا نسال عما تعملون)[٢].

و. هدف الحوار:

اما الهدف فهو الوصول الى المساحات المشتركة، ويبدو في قوله تعالى: (قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله)[٣].

وبالتالي التعاون في هذا الأطار تعاونا ايجابيا على البر والتقوى بعيدا عن الاثم والعدوان.

ز. ويمكن ان نضيف الى كل هذا: وجود الحكم العادل، وربما اشارت اليه الآية الشريفة: (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم)[٤].

هذه الاسس السبعة هي اهم مايمكن ان تبتني عليه حركة التقريب، فيكاد التصديق بالاسس يؤدي بشكل منطقي عفوي للايمان بهذه الحركة.

ومن هنا فنحن نعتقد ان التقريب لا يقتصر على الجوانب الاخلاقية او الجوانب الشعارية، ولا يتحدد بالجوانب التشريعية ايضا، بل يعبرها الى مختلف الجوانب الفكرية

---

(١) آل عمران: ٧٨.

(٢) سبا: ٢٥.

(٣) آل عمران: ٦٤.

(٤) سبا : ٣٦

والحضارية. وينبغي ان تشترك فيه كل النخبة المفكرة الفقهية والفكرية، بل يجب بشكل كامل وربما بشكل اولى ان تعبر النخبة الى الجماهير، فيبدأ تثقيفها بثقافة التقريب. لأن الاسلام ان كان يسمح بالاختلاف الفكري غير المخرب والطبيعي فانه لا يسمح مطلقا بادنى خلاف في الموقف العملي من القضايا المصيرية الداخلية والخارجية، ولذلك يعتبر الراد على الحاكم الشرعي (وهو الجهة التي يفترض بها ان تكون الموحدة للموقف العملي للامة) رادا على الله بعد ان اقترنت طاعته بطاعة الله ورسوله.

المبادئ والقيم التي ينبغي ان يلتزم بها التقريبيون

وبناء على تلك الاسس وتبعاً لما أعلنه العلماء والدعاة التقريبيون، فاننا ندعو للقيم التالية معتبرين اياها خطوطا عامة للسياسات التي ينبغي ان يراعيها الخط التقريبي ليحقق اهدافه المرجوة:

الاول: التعاون في ما اتفقنا عليه

والمتفق عليه في مختلف المجالات كثير جدا. فللمذاهب الاسلامية مساحات مشتركة كثيرة سواء كانت في الاصول العقائدية او في المجالات التشريعية (والتي يصل بها بعض العلماء الى اكثر من ٩٠٪ من المساحة العامة) او في المجالات الاخلاقية حيث التوافق يكاد يكون كاملاً، وكذلك في مجال المفاهيم والثقافة الاسلامية وحتى في المسيرة التاريخية والحضارية طبعا في مفاصلها الرئيسية رغم الاختلاف في تقييم المواقف المعينة. اما المواقف العملية فهم يتفقون جميعا على لزوم توحيدها عبر التكاتف والتكافل الاجتماعي وعبر وحدة القرار الاجتماعي الذي تتكفله جهة ولاة الامور الشرعيين. ولاريب ان التعاون في المشتركات الفكرية يعني التعاضد في تركيزها في الاذهان، وتجنب كل مايؤدي الى نقضها، وبالتالي تعميقها في مجمل المسيرة. اما التعاون في المجالات المرتبطة بالسلوك الفردي والاجتماعي والحضاري فواضح وتنضوي تحته المجالات

الحياتية المختلفة من قبيل:

تطبيق الشريعة الاسلامية، تعظيم الشعائر الالهية كالجمعة والحج، وتحقيق خصائص الامة الاسلامية كالوحدة وهكذا.

وهنا نشير الى ان حركة التقريب يجب ان تبذل قصارى جهدها لاكتشاف المساحات المشتركة هذه، وتوعية الجماهير، واحيانا نضطر الى توعية النخبة ايضاً بها ، كما تعمل على توسعة نطاق هذا الجانب المشترك عبر الاشارة ـ مثلا ـ الى كون النزاع والخلاف لفظياً لا جوهريا، او عبر التوعية باسلوب ثالث يشترك فيه الطرفان المختلفان.

الثاني: التعذير عند الاختلاف

فمادمنا نؤمن بانفتاح باب الاجتهاد، وهي الحالة الطبيعية التي لا يمكن اغلاقها بقرار، ومادامت اسباب اختلاف النتائج الاجتهادية قائمة وطبيعية، فمعنى ذلك الرضا باختلاف الآراء والفتاوى. ومن الجدير بالذكر هنا اننا لا نجد نهياً اسلامياً عن الاختلاف في الآراء، وانما ينصب النهي على التنازع العملي المُذهِب للقوة، والتفرق في الدين، والتحزب الممزق وامثال ذلك. وهذا يعبر عن عقلانية الاسلام ومنطقيته.

وعليه فيجب ان يوطن الفرد المسلم ـ عالما او متعلماً، مجتهداً كان او مقلداً ـ على تحمل حالة المخالفة في الراي وعدم اللجوء الى اساليب التهويل والتسقيط وامثالها. وحينئذ يكون الخلاف اخوياً ووديا (لا يفسد للود قضية).

ونشير هنا الى ورود نصوص كثيرة تدعو المؤمن للصبر والمداراة وسعة الصدر، ويمكن عكسها على واقعنا الحالي. ونحن نذكر هنا هذا النص عن الامام الصادق(عليه السلام) حيث جرى ذكر قوم فقال الراوي: إنا لنبرا منهم، انهم لا يقولون مانقول، فقال الامام: يتولونا ولا يقولون ماتقولون، تبراون منهم؟ قلت: نعم. قال: هو ذا عندنا ماليس عندكم، فينبغي لنا ان نبرا منكم ـ الى ان قال ـ فتولوهم ولا تبراوا منهم: ان من المسلمين من له سهم، ومنهم من له سهمان .... فليس ينبغي ان يحمل صاحب السهم على ماعليه

صاحب السهمين...»[1].

وتعامل ائمة المذاهب فيما بينهم مثال رائع على هذه الحقيقة. وسيطول بنا الحديث لو تعرضنا لما يرويه التاريخ عن ذلك[2].

كما اننا نجد هؤلاء الامة لايسدون باب الاجتهاد على غيرهم، بل يحرمون اتباع رايهم لو ثبت لدى احد دليل على خلافه.

وسنكتفي بذكر الاقوال التالية:

عن الامام مالك بن انس:

«انما انا بشر اصيب واخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة»

ويقول الامام الشافعي:

«اذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط».

ويقول الامام ابو حنيفة:

«هذا رايي وهذا احسن ما رايت فمن جاء براي غير هذا قبلناه ، حرام على من لم يعرف دليلي ان يفتي بكلامي».

ويقول الامام احمد بن حنبل:

«من ضيق علم الرجال ان يقلدوا الرجال».

وهذا بالضبط ما اكد عليه العلماء الكبار بعد ذلك.[3]

الثالث: تجنب التكفير والتفسيق والاتهام بالابتداع

ونحن نعتبر مسالة التكفير من المصائب التي ابتلي بها تاريخنا، فرغم النصوص

١ـ وسائل الشيعة طبعة مؤسسة اهل البيت(ع) ج ١٦، ص ١٦٠ .

٢ـ يراجع بحث الشيخ واعظ زاده حول الموضوع في كتابه (دراسات وبحوث) ج ١ ، ص ٥٤٥.

٣ـ وهناك الكثير من الاقوال نقلت في الكتب المتنوعة، منها كتاب (جلاء العينين) للآلوسي ص ١٠٧ و(تلبيس ابليس) لابن الجوزي ومن الكتب المتاخرة (الامام الصادق والمذاهب الاربعة) ج ١ ص ١٧٥.

الشريفة التي تحدد المسلم من جهة وتمنع من التكفير للمسلم من جهة اخرى[١] لاحظنا سريان هذه الحالة التي حجرت على العقل اي ابداع او مخالفة، حتى اننا شاهدنا من يؤلف كتاباً ويرى ان مخالفة حرف واحد فيه تؤدي الى الكفر، وهذا امر غريب[٢].

ومن هنا فنحن ندعو الى التحول بالمسالة من (الايمان والكفر) الى مرحلة (الصواب والخطأ) متحلين في ذلك بروح القرآن التي تدعو الى الموضوعية حتى في النقاش مع الكفار الحقيقيين إذ يُخاطب الرسول ان يقول لهم (وانا او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين)[٣].

الرابع: عدم المؤاخذة بلوازم الرأي

من المنطقي ان يحاسب الانسان على رأيه، ويناقش بكل دقة وأناة. الا اننا اعتدنا على مناقشات تبتني على لوازم الآراء، وبالتالي يأتي التكفير والاتهام بالابتداع في حين ان صاحب الراي قد لا يقبل تلك الملازمة. وكمثال على ذلك نجد البعض ممن يؤمنون بمسالة التحسين والتقبيح العقليين يصفون من لا يقبلون بهما بانه أمر يغلق باب الايمان بصدق النبي استنادا الى أن مايدفع احتمال كذب النبي الآتي بالمعجزة هو حكم العقل بقبح اجراء المعجزة على يد الكاذب عقلاً ، فاذا فرضنا عدم وجود اي تقبيح عقلي فمعنى ذلك اننا اغلقنا باب الايمان بالنبوة، وهكذا يقال بالنسبة لمسالة طاعة الله تعالى فان الملزم لنا باطاعته تعالى هو العقل لاغير.

وعلى هذا الغرار نجد البعض الأخر يتهم القائلين بالتوسل، او الشفاعة، او القسم بغير الله بالشرك لانه لازم لهذا القول وهلم جرا.

١ـ يمكن مراجعة احاديث كتاب (الايمان) في الصحاح وكتب الحديث مثل (جامع الاصول) لابن الاثير الجزري الجزء الاول .

٢ـ الشواهد لدينا مسجلة ولا نرغب في عرضها .

٣ـ سبأ، ٢٤ .

ان المناقشة العلمية الهادئة امرٌ مطلوب. ولسنا مع اغلاق باب البحث الكلامي مطلقا، بل المنطق يقتضي فتحه، ولكننا ندعو للمناقشة المنطقية فلا ننسب للآخر ما لم يلتزم به، ومادام لا يؤمن بالملازمة بين رايه والراي الآخر فاننا نلتمس له العذر. وبهذا نستطيع ان نغلق بابا واسعا من الاتهامات المزّقة .

الخامس: التعامل باحترام عند الحوار

ذلك اننا نعلم ان الحوار هو المنطق الانساني السليم في نقل الفكر الى الآخرين، وان القرآن الكريم طرح نظرية رائعة للحوار المطلوب تناولت مقدمات الحوار وظروفه واهدافه ولغته بشكل لا مثيل له، وكان مما تناوله: مسالة الاستماع للآراء واتباع احسنها، ومساله عدم التجريح، حتى ان الآية الشريفة تقول: (قل لا تسالون عما اجرمنا ولا نسال عما تعملون) [1] في مجال توجيه حوار الرسول مع غير المؤمنين بالاسلام وابعاده عن مسالة اثارة حزازات الماضي والاتهامات المتبادلة فيه والتوجه لمنطقية الحوار نفسه، وهي تراعي حتى التعبير، فلم تقل ولا نسال عما تجرمون، احتراما للطرف الآخر، مع ان السياق اللفظي كان يتناسب معه. فكيف بنا ونحن نتحاور كمسلمين متفقين على المبادئ التي اشرنا اليها في اشارتنا لأسس عملية التقريب.

هذا وقد جاء في الحديث (بحسب امرئ من الشر ان يحقر اخاه المسلم). [2]

السادس: تجنب الاساءة لمقدسات الآخرين

والحقيقة هي ان هذا الامر يتبع المبدأ السابق بل هو في الواقع اولى منه، لأنه يخلق جواً عاطفيا معاكساً، ويفقد الحوار توازنه المطلوب. وقد راينا القرآن ينهى عن هذه الحالة فيقول تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم

١ـ سبأ: ٢٥ .

٢ـ رواه مسلم عن ابي هريرة في حديث مطول.

كذلك زينا لكل امة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون)[١]. بهذه الروح الانسانية يوجه الله(تعالى) المؤمنين في تعاملهم بعد ان يوضح لهم وظائفهم الدعوية لا التحميلية وفرض الراي على الآخرين حتى لو كانوا مشركين (ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما انت عليهم بوكيل)[٢].

والنصوص الاسلامية في النهي عن السب واللعن معروفة. فاذا كان هذا هو الحال مع المشركين ، فكيف يكون الامر، والحال ان المفروض هو الحوار بين مسلمين اخوين يعملان لهدف واحد ، ويشعر كل منهما بآلام الآخر وآماله، فان الموقف لا يتحمل مطلقا احتمال الاهانة ، وخصوصا للأمور التي يؤمن الآخر بقدسيتها لارتباطها بمعتقداته الاصيلة.

السابع: الحرية في اختيار المذهب

ذلك اننا بعد ان اعتبرنا المذاهب نتيجة اجتهادات سمح بها الاسلام، علينا ان نعدها سبلا مطروحة للايصال الى مرضاة الله تعالى. وحين تختلف فان من الطبيعي ان يدرس المسلم هذه المذاهب وينتخب الافضل منها وفق معاييره التي يؤمن بها، والتي يشخص من خلالها انه ابرأ ذمته امام الله وادى امانته وعهده. وحينئذ فليس لأحد ان يلومه على اختياره حتى ولو لم يرتح لهذا الاختيار. كما انه لا معنى لإجبار احد على اختيار مذهب ما ، لأن ذلك مما يرتبط بالقناعات الايمانية ، وهي امر لا يمكن الوصول اليه الا بالدليل والبرهان.

وهنا أؤكد ان لكل مذهب الحق في توضيح ارائه ودعمها دونما تعد على الآخرين او تهويل او تجريح ، فلا ندعو الى اغلاق باب البحث المنطقي السليم في العقيدة او الفقه او التاريخ ، وانما نرفض محاولات الاستغلال السيىء، والاستضعاف ، والجدال العقيم، وفرض

١ـ الانعام: ١٠٨ .

٢ـ الانعام: ١٠٧ .

الراي وامثال ذلك.

ونحن نعتقد ان ماجرى من تعد خلال تاريخنا الطويل ناشئ من عدم الالتزام بقواعد الحوار المطلوبة، ونسيان حقيقة ان جميع المذاهب تعمل لإعلاء كلمة الاسلام وفق تصورها عن هذه الكلمة.

شبهات في البين

وقد اثيرت في البين شبهات تارة بحسن نية واخرى بنية سيئة من قبيل:

١. ان الاختلاف بين المذاهب الاسلامية انما هو في الأصول.

٢. ان الاختلاف بين المذاهب الاسلامية انما هو في اختلاف المصادر.

٣. اتهام كل طرف الآخر بالابتداع.

٤. اتهام كل طرف الآخر بالشرك عبر تبيين لوازم العقيدة.

٥. اتهام كل طرف الآخر بالنفاق والتآمر.

٦. تصور ان القبول بالحوار ينم عن شك في المذهب أو قبول ضمني بآراء الآخرين.

٧. تصور ان التقريب يستهدف التذويب وحمل الناس على مذهب واحد وهو امر باطل فالتقريب باطل.

٨. تصور ان التقريب يسهل الأمر للانتقال من مذهب لآخر وبالتالي تخريب المعادلة بين المذاهب.

٩. تصور ان التقريب غطاء للتسلل الى المذهب الآخر وتبليغ التعاليم المنافية له والتشكيك فيه.

١٠. تصور أن التقريب حركة ذات مصلحة سياسية بعيدة عن جوهر الدين.

الى ما هنالك تصورات واجهت شخصياً بعضها وقرأت عن البعض الآخر الكثير.

ولكني اشهد الله تعالى على مافي قلبي وفكري حين القول اني لم ار لهذه الشبهات اي

والقع ولا أرى انها تعدو مرحلة (الشبهة) وان كنت لا امانع أن تقوم جماعة بدراستها وكشف زيفها.

ولكني أشير هنا الى الحقائق التالية:

أولاً: إننا لاحظنا مسالة اهتمام القرآن بالحوار حتى مع المشركين وأهل الكتاب فكيف نتصور منعه للتفاهم بين المسلمين.

ثانياً: ان هناك بحثاً قرآنياً وحديثياً واسعاً حول (المداراة) كصفة رائعة للمسلم يتعامل بها مع الآخرين ولا مجال للتفصيل هنا.

ثالثاً: ان الائمة كانوا يعيشون معاً ويدرس بعضهم على بعض حتى ليتباهى بعضهم بفترة دراسته هذه، كما لم يكونوا ليحتكروا العلم بالحقيقة في حين نجد بعض اتباعهم يبتعدون حتى عن التفاهم.

رابعاً: ولقد شهدنا حركة تقريبية في الأزهر الشريف في الخمسينات شارك فيها الاعلام والعلماء ومنهم:

١ـ الاستاذ الاكبر الشيخ المراغي.

٢ـ الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.

٣ـ الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم.

٤ـ الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت.

٥ـ العالم الكبير الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء.

٦ـ العالم الكبير السيد شرف الدين الموسوي.

٧ـ الامام الكبير السيد البروجردي.

٨ ـ الاستاذ الكبير السيد هبة الدين الشهرستاني.

٩ـ والعالم الشيخ محمد تقي القمي.

وهم علماء كبار سنة وشيعة قاموا بحمل لواء التقريب، فهل خفيت عليهم هذه

الشبهات وبعضها يتصل بالاصول؟!

وقد استبشر المرحوم الشيخ محمد محمد المدني بخطوة رائعة اتخذها الازهر بتدريس المذهب الشيعي الامامي والزيدي في اكبر كلية من كلياته واخرى اتخذتها ايران (آنذاك) بادخال فقه السنة في كلية المعقول والمنقول[1].

خامساً: وقد شهدت حركة التقريب تقدماً واسعاً وقبولاً عاماً اليوم.

واروع مثال على ذلك قيام اكبر مجمع فقهي هو مجمع الفقه الاسلامي بجده بايجاد شعبة متخصصة باسم (شعبة التقريب بين المذاهب الاسلامية) وحصول روح توافقية عامة حرة في اجتماعاته العامة، مما يكشف عن وحدة المنابع والرؤى وانفتاح للعالم الاسلامي على بعضه البعض. وقد اسس في الجمهورية الاسلامية الايرانية (المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية) وهو يضم في مجلسه الاعلى علماء من المذاهب الاسلامية المتنوعة، وقد قام هذا المجمع بدوره بتأسيس (جامعة المذاهب الاسلامية).

هذا وقد اعتمدت (الايسيسكو) ـ المنظمة العالمية الاسلامية للتربية والعلوم ـ التقريب هدفا وعقدت له مؤتمرات في شتى انحاء العالم.

كما قامت المراكز العلمية الدينية في البلدان الاسلامية كالمغرب ومصر والجزائر والاردن وسوريا ولبنان وايران وباكستان والسودان وماليزيا واندونيسيا وغيرها بعقد الندوات والمؤتمرات العالمية لتركيز هذه الحقيقة.

سادساً: اننا يجب ان نحدد ماذا نعني بالاصول حتى يتضح لنا ماذا نقصد من قولنا عدم وجود الاختلاف فيها؟ واذا لخصنا البحوث المفصلة حول الحدود التي تفصل بين الاسلام واللااسلام استناداً للآيات الكريمة والروايات الشريفة فانها جميعاً تركز على الحدود التالية:

١ـ الايمان بالتوحيد الالهي اجمالاً.

٢ـ الايمان بنبوة الرسول الاكرم(ص) ولزوم طاعته في كل ما يصدر عنه.

---

(١) ملف التقريب، ص ٢١٢.

٣ـ الايمان بالقرآن الكريم والعمل بكل أوامره ونواهيه وقبول كل تصوراته وتعاليمه.

٤ـ الايمان بالمعاد اجمالاً.

٥ـ الايمان بتشريع الاسلام لمجموعة من الاحكام التي تنظم السلوك الفردي والاجتماعي ولزوم تنفيذها.

ولا اجد اي خلاف على هذه الاصول مطلقاً، نعم هناك خلافات حول التفصيلات مثلاً:

١ـ في الصفات الالهية وعلاقتها بالذات.

٢ـ في المسائل العقائدية الفرعية كالجبر والاختيار والقضاء والقدر، والشفاعة وغير ذلك.

٣ـ في اثبات بعض الروايات وردها سنداً او دلالة ويترتب عليه اختلافات أخرى.

٤ـ في مسائل الخلافة والامامة.

٥ـ في بعض الاحكام التشريعية.

وغير ذلك.

الا انهم متفقون جميعاً على انه اذا ثبت شيء بالقرآن الكريم أو السنة الشريفة فانه يجب الاذعان له دونما تردد.

وينبغي التنبيه على ان البعض يحاول إلجاء الطرف المخالف للخروج من الحدود الاسلامية من خلال ذكر لوازم قوله مثلاً بهذا الراي. وهذا الاسلوب مرفوض في هذا المجال مادام الطرف الآخر لا يعتقد بهذا اللزوم، إذ لو كان يعترف به كان عليه التراجع بعد ان نفترض ايمانه بالاصول المذكورة. فلا يمكن ان نخرج فرداً عن الاسلام لان من لوازم قوله في نظرنا نفي الاصول الاولى وبهذا نحل مسألة الاتهام بالابتداع والشرك.

سابعاً: من الواضح ان مصادر التشريع لدى كل المسلمين هي الكتاب والسنة، ولا

يتنافى هذا مع الاختلاف مثلاً في علاقة الكتاب بالسنة وهل لها ان تخصص العام الكتابي مثلا ام لا.

ولا مع الاختلاف احياناً في الطرق الموصلة الى السنة.

ولا مع الاختلاف مثلاً في دلالة التقرير النبوي.

ولا مع الاختلاف في وجه صدور الأمر النبوي وهل هو باعتباره حاكماً او باعتباره رسولاً.

ثامناً: اما منطق الاتهام والتشكيك فنحن منهيون عنه.

تاسعاً: ان حركة التقريب كما هو واضح لا تستهدف التذويب مطلقاً، وهي تؤمن بأن المذاهب كلها ثروة لهذه الامة والحضارة، كما تؤمن بأن فكرة المذهب الواحد خيال محض.

استراتيجية

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

تمهيد:

اقدم المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية وفي إطار تحقيق أهدافه وتطلعاته على إعداد (مشروع جامع للخطة الستراتيجية) وقدمه إلى المجلس الأعلى الدولي في اجتماعه بطهران في الفترة ١٨ و١٩ شوال ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٣ و٢٠٠٢/١٢/٢٤م، فتمت مناقشته بالتفصيل وتعديله والموافقة عليه.

وللمشروع قسمان:

اما القسم الأول فيشكل مقدمة للاستراتيجية، وهو يشمل مواضيع متنوعة منها:

أ ـ التعريفات الضرورية.

ب ـ موجز عن كيفية تشكل المذاهب.

ج ـ موجز عن أسباب اختلاف الفقهاء وغيرهم.

د ـ لمحة تاريخية عن تعامل الأئمة فيما بينهم.

هـ ـ لمحة تاريخية عن دور الحكام والمصالح الشخصية في تاجيج النزاع بين المسلمين وتحويل المذهبية الى طائفية مقيتة.

و ـ دور بعض الحكام وبعض العلماء في تحقيق التقارب.

ز ـ التقريب في العصر الحديث ودور دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة.

ح ـ كيفية انشاء المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

ط ـ نقاط الضعف ونقاط القوة في حركة المجمع والتقريب.

ي ـ الآفاق والتوقعات حول مستقبل حركة التقريب. وسيتم اعداده لاحقاً.

واما القسم الثاني فهو يركز على الاستراتيجية نفسها والمتمثلة في الفصول التالية:

الفصل الأول: المفاهيم التخصصية

١. التقريب:

التقريب حسب وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية يعني:

التقارب بين اتباع المذاهب الإسلامية بغية تعرف بعضهم على البعض الآخر عن طريق تحقيق التآلف والأخوّة الدينية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة.

٢. الوحدة الإسلامية:

الوحدة الإسلامية عبارة عن:

التعاون بين أتباع المذاهب الإسلامية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة واتخاذ موقف موحد من اجل تحقيق الأهداف والمصالح العليا للأمة الإسلامية والموقف الموحد تجاه أعدائها مع احترام التزامات كل مسلم تجاه مذهبه عقيدة وعملاً.

٣. المذاهب الإسلامية:

المقصود من المذاهب الإسلامية هو تلك المدارس الفقهية الإسلامية المعروفة التي تتمتع بنظام اجتهادي منسجم ومستند إلى الكتاب والسنة.

وإن المدارس الفقهية المعترف بها حسب وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية هي عبارة عن:

المذهب الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي، من أهل السنة، والمذهب الإثني عشري، والزيدي، من الشيعة، والمذهب الأباضي.

(على ان هناك مدارس اخرى إمّا انها لا أتباع لها، او انـها تنضم لأحد المذاهب المذكورة، او انها تعبر عن آراء فردية لا تتقيد في عملها بمذهب معين).

الفصل الثاني: أسس التقريب

تقوم مسيرة التقريب بين المذاهب الإسلامية على مبادئ عامة من أهمها ما يلي:

١. إن الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الأساسيان للشريعة، والمذاهب الإسلامية كلها تشترك في هذين المصدرين، وحجية المصادر الأخرى رهن بكونها مستمدة منهما.

٢. يعد الإيمان بالأصول والأركان التالية ضابطاً للصبغة الإسلامية:

أ: الإيمان بوحدانية الله تعالى (التوحيد).

ب: الإيمان بنبوة وخاتمية الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وان سنته تمثل احد مصدري الدين الرئيسين.

ج: الإيمان بالقرآن الكريم ومفاهيمه واحكامه باعتباره المصدر الأول لدين الإسلام.

د: الإيمان بالمعاد.

هـ: عدم إنكار ضرورات الدين والتسليم باركان الإسلام كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد و..

٣. شرعية الاجتهاد وحرية البحث: لقد اعترف الإسلام الحنيف بالاختلافات الفكرية عبر اعترافه بشرعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسة، ولذا على المسلمين ان يعتبروا الاختلاف في الاجتهادات امرا طبيعيا ويحترموا الراي الآخر.

٤. إن الوحدة الإسلامية هي خاصية قرانية للأمة الإسلامية، وهي مبدا يمتلك أهمية كبرى فيقدم في موارد التزاحم على غيره من الأحكام التي تقل عنه اهمية.

٥. إن مبدا الأخوة الإسلامية يشكل اساساً عاماً لنوعية التعامل بين المسلمين.

الفصل الثالث: رسالة المجمع وتطلعاته

تتلخص رسالة المجمع العالمي للتقريب في:

النهوض بمستوى التعارف والوعي، وتعميق التفاهم بين اتباع المذاهب الإسلامية، وتعزيز الاحترام المتبادل وتوطيد أواصر الأخوة الإسلامية بين المسلمين مع تجنب التمييز بشأن انتماناتهم المذهبية أو القومية أو الوطنية بغية تحقيق الأمة الإسلامية الواحدة.

تطلعات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

يعد المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية الذي يضم بين صفوفه العشرات من علماء المذاهب الإسلامية من مختلف دول العالم ، أحد المراكز المهمة التي عرفت بدعوتها للتقريب والوحدة في العالم الإسلامي ومهدت للتعامل البناء بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة. في هذا السياق، ينوي المجمع تحقيق النقاط التالية على مدى السنوات العشر القادمة:

١ـ السعي الى جعل الوضع الذي يعيشه المجتمع الإسلامي المعاصر أقرب ما يكون إلى ظروف ووضع عصر الرسول الأكرم (ص) من حيث التأسي بجوانب الأخوة الدينية والقضاء على أجواء العداوة والعصبية الطائفية بين اتباع المذاهب الإسلامية.

٢ـ توسيع نطاق التضامن القائم فعلاً بين بعض المذاهب الإسلامية ليشمل كافة المسلمين وسائر المذاهب الإسلامية.

٣ـ تقبل عامة المسلمين للخلافات بين المذاهب والمنبثقة عن الاجتهاد المنضبط.

٤ـ اقتداء الأتباع بسلوك أئمة المذاهب الإسلامية بعضهم مع بعض وتوسيع نطاق العمل به بين اتباع المذاهب اليوم.

الفصل الرابع: مجالات التقارب

تشمل مجالات التقريب الإسلامي بين المذاهب جوانب حياة أتباع هذه المذاهب كافة حيث يمكن الإشارة إلى الجوانب التالية:

العقائد:

للمذاهب الإسلامية كافة رؤية مشتركة واحدة حول الأصول العقائدية والأركان الإسلامية والخلاف في فروعها لا يخل بأصل الإسلام والأخوة الإسلامية.

الفقه وقواعده:

وفقاً لوجهة نظر محققي فقهاء المذاهب، فإن الأبواب الفقهية تتضمن نسبة عالية من النقاط المشتركة والاختلاف في بعض المسائل الفقهية أمر طبيعي مردّه إلى فهم الفقهاء واجتهاداتهم.

الأخلاق والثقافة الإسلامية:

ليس للمذاهب الإسلامية خلاف في الأصول الأخلاقية والثقافة الإسلامية على الصعيد الفردي والاجتماعي. والرسول الأكرم(ص) اسوة الأخلاق لدى المسلمين كافة.

التاريخ:

ولا ريب أن المسلمين يتفقون على وحدة المسيرة التاريخية في مفاصلها الرئيسة والاختلافات الفرعية والتفصيلية يمكن طرحها في جو هادئ والوصول الى موارد كثيرة للاتفاق. وعلى اي حال، فيجب ان لا تترك الخلافات آثارها السلبية على المسيرة الحاضرة للأمة.

المواقف السياسية للأمة الإسلامية:

لا شك ان المسلمين كافة لهم عدو مشترك، ينبغي لهم الوقوف بوجهه في صف واحد كانهم بنيان مرصوص. علماً بان سمات وميزات الأمة الإسلامية تحتم هذه الضرورة فضلاً عن أنه لم يرد منع في اي من المذاهب الإسلامية في هذا المجال، ولذا ينبغي لقادة وعلماء الإسلام والمفكرين الإسلاميين تبني سياسة موحدة تجاه الأعداء.

الفصل الخامس: المبادئ والقيم

يتمسك المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في منهجه الإصلاحي وتنفيذ برامجه انطلاقاً مما سبق بالمبادئ والقيم ادناه:

١. ضرورة التعاون الكامل في الموارد التي يتفق المسلمون عليها.

٢. ضرورة اتخاذ موقف منسق وواحد في مواجهة أعداء الإسلام.

٣. تجنب تكفير وتفسيق المسلمين الآخرين ورميهم بتهمة البدعة، علينا كمسلمين يقبلون بمشروعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسة، ان نقبل مستلزمات هذا المبدأ وتبعاته حتى لو كان الراي الاجتهادي خطأ في نظرنا. لذا ينبغي الهبوط بمرتبة الاختلافات من الكفر والإيمان إلى مرتبة الخطأ والصواب.

كما لا ينبغي لأحد - من جانب اخر - ان يكفر الآخر بسبب لوازم حديثه او رايه التي تقود حسب رأينا إلى إنكار اصول الدين، فقد يكون غير ملتزم بهذه اللوازم.

٤. التعامل باحترام عند الاختلاف، فحينما يوصي الإسلام بنوع من التحمل الديني في علاقاته مع باقي الأديان ويطلب من المسلمين ان لايسبئوا للمقدسات الفكرية والعقائدية الباطلة للآخرين، فإن من الأولى أن يؤكد في إطار العلاقات بين المسلمين على مبدأ تجنب الإساءة لمقدسات أتباع المذاهب الإسلامية وأن يعذر بعضهم البعض الآخر فيما يختلفون فيه.

٥ - حرية اختيار المذهب، إن مبدأ حرية اختيار المذهب مبدأ عام في العلاقات الفردية، فكل شخص حر في اختيار مذهبه الإسلامي اذا تمت الحجة لديه على ذلك، ولا ينبغي للمنظمات والحكومات ان تفرض على احد مذهباً دون غيره بل تعترف بالمذاهب الإسلامية جميعاً. والمجمع لايشجع التبشير المنظم بمذهب اسلامي في اوساط مذهب آخر استغلالاً لحاجة بعض المسلمين أو أوضاعهم الاجتماعية او السياسية.

٦. حرية العمل بالأحكام الشخصية، فيما يتعلق بالمسائل الخاصة بالأمور الشخصية،

فإن اتباع المذاهب الإسلامية يتبع كل منهم الأحكام المتعلقة بمذهبه، سوى ما كان مرتبطاً بالنظام العام، حيث تكون كلمة الفصل للقوانين المنصوص عليها في بلادهم التي تديرها حكومة شرعية.

٧- استناداً لما ورد في سورة الزمر المباركة: (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)، دعا القرآن الكريم المسلمين إلى اعتماد مبدأ الحوار السّلمي مع الكفار وأهل الكتاب بعيداً عن التهويل والضوضاء، وذلك من أجل بلوغ الحقيقة. من أجل ذلك وجب على المسلمين من باب أولى أن يتم حل اختلافاتهم عن طريق الحوار السلمي ومراعاة آدابه فيما بينهم.

٨- لزوم اهتمام جميع المسلمين بالجانب العملي للتقريب وتجسيد هذه القيم في حياتهم، والسعي الشامل لتطبيق الشريعة الإسلامية في كل جوانب الحياة.

الفصل الثاني

مقترحات لتحقيق التقريب



مقترحات لتحقيق التقريب

وسائل مقترحة لتحقيق التقريب الفكري:

لاشك ان العبء الاكبر من عملية التقريب يقع على عاتق العماء والمفكرين، ذلك لأنهم من جهة ورثة الانبياء وحملة الدعوة وبناة الجيل، وهم من جهة أخرى اعلم بالاسس التي يعتمدها التقريب ، واكثر اثرا في توحيد الصفوف وتحقيق خصائص الامة.

واذا اردنا ان نقترح باختصار الادوار التي يجب ان يقوموا بها اقترحنا مايلي:

١- تعميق المنهج الوسطي في فهم الشريعة.

٢- تعميم منطق الحوار الاسلامي ـ الاسلامي.

٣- مراعاة الاولويات، ومعرفة المآلات، وملاحظة الظروف العملية عند محاولة اصدار الفتاوى والاحكام العملية.

٤- مراعاة مقاصد الشريعة وخصائص الاسلام في هذه العملية وعند تحويل الفقه الاسلامي الى قوانين تطبيقية.

٥- العمل على احياء علم المقارنات او الخلاف الايجابي.

٦- الاهتمام الشديد بمجامع الاجتهاد الجماعي كمجمع الفقه الاسلامي.

٧- الاهتمام بفقه النظريات، ونعني به اكتشاف المذهب الاسلامي في جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية وهو امر يختلف عن الاستنباط الفقهي الجزئي، وهذا الفقه يساعدنا كثيرا في اكتشاف الفروق بين الرؤية الاسلامية ورؤية باقي المذاهب

الوضعية، كما يقدم لولي الامر الحلول العملية ليختار منها ما هو الاصلح في التطبيق.

٨- العمل على تصميم مبدا الرجوع لأهل الخبرة في الدين وحذف التطفل والاستحسانات العفوية والقراءات الحديثة وامثال ذلك.

٩- ضرورة التعمق في اسس حركة التقريب وقيمها، وتأصيلها في نفوسهم وعكسها في بحوثهم ودراساتهم وكتاباتهم، بل واخذها بعين الاعتبار في استنباطاتهم الفقهية والفكرية، وملاحظتها كاصل توجيهي ومصلحة مرسلة مهمة تقدم في مجال التزاحم على الاحكام الاقل اهمية بمقتضى قواعد التزاحم المعروفة في اصول الفقه. ومن هنا فقد دعونا في بعض المؤتمرات الدولية الى دعم حركة (التقريب الفقهي) ومحاولة التركيز على تقريب الآراء الفقهية، وكثيرا ما نجد ان بعض النزاعات الفقهية بعد التامل فيها تحول الى خلافات لفظية ناتجه عن اختلاف زوايا النظر او اختلاف في المصطلحات، كما نجد الامر كذلك في بعض البحوث الاصولية كالبحث عن القياس احياناً والاستحسان وسد الذرائع وامثالها. وهو اتجاه نلاحظه في بعض الكتب الاصولية من قبيل (اصول الفقه) للمرحوم العلامة الشيخ محمد رضا المظفر والمرحوم العلامة السيد محمد تقي الحكيم وقد وفقنا الله للتتلمذ على يديهما.

وهنا لابد ان اشير الى كثير من الكتابات المغرقة في تعميق الخلاف واعطائه ابعادا متخيلة توحي للقارئ ان اللقاء مستحيل، وان الخلاف يستشري في كل المجالات ، بحيث لا معنى لتصور اية عملية تقريب. وانى لأظن انها كتابات تجافي الحقيقة وتتناسى وحدة المنابع ووحدة الاساليب والملاكات ووحدة الهدف.

١٠- العمل المنسق على توعية الامة والانتقال بثقافة التقريب الى المستوى الجماهيري فلا يشعر الفرد المسلم تجاه الآخر الا بشعور الاخوة الصادقة والتعاون رغم الاختلاف المذهبي، وتتسع الصدور للمارسات والتعددية المذهبية، وتنتفي المشاحنات العاطفية والترسبات التاريخية والموروثة التي خلفت وراءها صورا لا تطاق دونما مبرر، فالاختلاف في

حكم شرعي، والتفاوت في تقويم موقف تاريخي، والافتراق في سلوك اجتماعي: كلها امور يمكن تبريرها وتحملها مادامت في الدائرة الاسلامية العامة وناتجة من الاختلاف في الاجتهاد.

نعم اذا خرج السلوك في راي المجتهدين جميعا عن الدائرة تم العمل على نفيه بافضل اسلوب.

١١- السعي المشترك المتظافر لاتخاذ المواقف الوحدوية النموذجية في كل القضايا المصيرية من قبيل:

ا – تطبيق الشريعة الاسلامية.

ب – تحقيق نظام السيادة الشعبية في الاطار الديني.

حـ – مواجهة العدو وخططه في محو وجود الامة وهويتها.

د – صيانة وحدة الامة ونبذ التفرقة.

هـ – تقديم للصالح العامة على المصالح الخاصة.

١٢- تشجيع ايجاد المؤسسات التقريبية من قبيل:

ا- اقسام الدراسات التقريبية المقارنة.

ب – النوادي الاجتماعية المشتركة.

حـ – المعسكرات التقريبية في مختلف الشؤون.

د – ايجاد جماعات التقريب في شتى اماكن تواجد المسلمين .

١٣- واخيرا فان عليهم السعي لتوحيد مناهج الاستدلال، وهو ما يتطلب منا شيئا من التوضيح، وهو ما نقدمه في ما يأتي.

توحيد مناهج الاستدلال من اهم وسائل التقريب

وكمقدمة لابد ان نعرف شيئا عن اسباب اختلاف الفقهاء.

وقد اوجزها ابن رشد في مقدمة كتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) وحصرها في ستة امور:

احدها: تردد الألفاظ بين هذه الطرق الاربع، اعني بين أن يكون اللفظ عاماً يراد به الخاص، او خاصاً يراد به العام، او خاصاً يراد به الخاص، او يكون له دليل الخطاب، او لا يكون.

والثاني: الاشتراك الذي في الألفاظ، وذلك إما في اللفظ المفرد كلفظ (القرء) الذي يطلق على الطهر وعلى الحيض، وكذلك لفظ (الامر) هل يحمل على الوجوب أو على الندب، ولفظ (النهي) هل يحمل على التحريم او الكراهة، وإما في اللفظ المركب مثل قوله تعالى (إلا الذين تابوا)[1] فانه يحتمل ان يعود على الفاسق فقط ويحتمل ان يعود على الفاسق والشاهد فتكون التوبة رافعة للفسق ومجيزة شهادة القاذف.

والثالث: اختلاف الإعراب.

والرابع: تردد اللفظ بين حمله على الحقيقة او حمله على نوع من انواع المجاز التي هي إما الحذف، وإما الزيادة، وإما التاخير، واما تردد على الحقيقة او الاستعارة.

والخامس: اطلاق اللفظ تارة وتقييده تارة اخرى، مثل اطلاق الرقبة في العتق تارة، وتقييدها بالايمان تارة.

والسادس: التعارض في الشيئين في جميع اصناف الالفاظ التي يتلقى منها الشرع الأحكام بعضها مع بعض، وكذلك التعارض الذي ياتي في الافعال او في الاقرارات او

---

(١) النور: ٥.

تعارض القياسات نفسها، او التعارض الذي يتركب من هذه الاصناف الثلاثة، أعني معارضة القول للفعل او للاقرار او للقياس، ومعارضة الفعل للاقرار او للقياس، ومعارضة الاقرار للقياس[1].

الا ان هذا التقسيم وقع موقع الاعتراض، اذ انه ركز على الاسباب التي تتصل بالاختلاف في تنقيح الصغريات لحجية الظهور او حجية القياس، في حين ان الاختلاف في الكبريات نفسها باعتبارها المنشأ الاساس لهذا الاختلاف، مما لا يمكن تجاهله. ولذا اتجهوا للتركيز على منبعين رئيسيين هما:

١ ـ الخلاف في الاصول والمباني العامة المعتمدة في الاستنباط الاجتهادي، كالخلاف في حجية القياس او العقل او الاستصحاب.

٢ ـ الخلاف في تعيين مصاديق تلك الكبريات وموارد انطباقها.

(وفي هذا القسم تنتظم جميع تلكم المناشئ التي ذكرها ابن رشد ونظائرها مما لم يتعرض لها كمباحث المفاهيم، والمشتقات، ومعاني الحروف، وما يشخص صغريات حجية العقل، ككباب الملازمات بما فيه من بحوث مقدمة الواجب، واجتماع الامر والنهي والاجزاء، واقتضاء الامر بالشيء النهي عن ضده، وغيرها من المباحث المهمة)[2].

وهذا التقسيم الاخير ـ بلا ريب ـ أوفى واكثر انطباقا على الواقع من التقسيمين السابقين، وهذا يعني ان الاختلاف في اصول الفقه هو الاساس في جلّ الاختلافات في الفتاوى، الامر الذي يتطلب جهدا واسعاً ولقاءات علمية مستمرة لتحقيق تفهم اكبر للآراء والأدلة، والوصول الى مساحات مشتركة ـ وهي واسعة كما أتصور ـ وذلك تقليلا للخلاف من جهة وتفهماً اكثر لوجهة النظر الفقهية المخالفة من جهة أخرى، الامر الذي يمنع من انسحاب هذا الخلاف الطبيعي الى المجالات التحريفية التي المحنا اليها.

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ص ٥ ـ ٦؛ ج١.

(٢) اصول الفقه المقارن، ص١٩.

الاختلاف في ترتيب الادلة :

والاختلاف في ترتيب الأدلة قد يترك أثره في النتائج الى الحد الذي يمكن ضمه كمنبع ثالث الى المنبعين السابقين، مما يتطلب تحرير البحث فيه على حدة، وبغض النظر عن الخلاف في الأصل نفسه. فالاختلاف في ترتيب الأدلة قد يقع بين الذين يؤمنون باصول مشتركة ويختلفون في ترتيبها.

وعلى هذا فمصب بحثنا هنا هو (الترتيب المنطقي بين الأدلة) وضرورته لتامين عملية استدلال صحيحة مما لا يحتاج الى بحث.

مبادئ لابد من الاتفاق عليها أولاً

ولكي يتم الاتفاق على الترتيب المنطقي لابد من الاتفاق على بعض المبادئ، لما لذلك من أثر في نوعية الترتيب المذكور، ومن اهمها ما يلي:

١ ـ الأدلة ونظرها الى الواقع.

٢ ـ الأحكام الأولية والثانوية.

٣ ـ العناصر الموجبة لتقديم بعض الأدلة على البعض الآخر.

ولسنا بصدد الدخول في البحث المفصل حول هذه الامور بقدر ما نحن بصدد توضيحها لنبني عليها الترتيب الاستدلالي المنطقي المطلوب.

١. الادلة ونظرها الى الواقع

لا ريب في ان للشريعة واقعا قائما بذاته، وبغض النظر عن علمنا به، وذلك واضح بملاحظة انها تعبر عن تخطيط الهي كامل لتربية الانسانية وهدايتها لتحقيق هدف خلقتها.

وعندما نحاول اكتشاف هذا الواقع فاننا نلجا الى (الأدلة الاجتهادية) التي تشير الى الواقع.

وهذه الأدلة منها ما يوجب القطع والعلم بالواقع، والقطع حجيته ذاتية لا تكتسب ولا تسلب، ومنها ما يوجب الظن بالواقع ويسمى اصطلاحا بـ(الامارة) اذا قام على اعتبارها دليل قطعي يؤكد على ان الظن الذي تنتجه هو ظن يعتبره الشارع ويعده كاشفا عن الواقع، رغم كون هذا الكشف غير تام في نفسه الا انه يتمم كشفه تعبدا.

فالامارة اذن تعلن انها تؤدي الى الواقع الشرعي من قبيل النصوص التي يظهر منها حكم شرعي، وهناك ادلة لا تعلن ان مؤداها هو الواقع، ولكن تؤكد على المكلف ان ينزل مؤداها منزلة الواقع، كالاستصحاب الذي يقول ببقاء اليقين في حالة الشك وذلك من حيث الجري العملي[1].

وهناك ادلة اخرى لا تنظر الى الواقع بكل مراتبه وتسمى بـ(الاصول العملية) من قبيل أصل البراءة وأصل الاحتياط واصل التخيير، ولن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع وانما نكتفي بهذه الاشارة.

٢. الأحكام الاولية والثانوية

وللأحكام تقسيمات متعددة، الا اننا نشير هنا الى تقسيم يرتبط بموضوعنا هذا، وهو تقسيمها الى الاحكام الأولية والثانوية.

فالحكم الاولي هو الحكم المجعول للشيء اولاً وبالذات، بغض النظر عن العوارض التي تعرض عليه، وهي أكثر الاحكام الواقعية التكليفية كحرمة شرب الخمر، او الوضعية كبطلان العقد الربوي. اما الحكم الثانوي، فهو ما يجعل للشيء من احكام بعد طرو عنوان خاص يقتضي تغيير حكمه الاولي، كطروّ الضرر على الصوم، مما يحوّل حكمه من الوجوب الى الحرمة مثلاً.

وهي حالة تعبر عن مرونة عامة في الشريعة الاسلامية. وهناك اصطلاح آخر للحكم

---

(١) مصباح الاصول، ص٦.

هو الحكم الولائي، ويقصدون به الأحكام التي يصدرها وليّ الأمر في مجال ملء منطقة الفراغ او المنطقة المباحة في التشريعات مما يغيرها الى أحكام إلزامية، ولا ريب في أن وجوب إطاعة احكام ولي الأمر هو من الاحكام الاولية، ولكن متعلقات هذه الاوامر تكتسب احكاماً ثانوية تقوم على اساس المصالح التي يراها ولي الأمر في عملية ادارته للمجتمع. وهنا ايضاً لا نريد الدخول في مجالات نفوذ أوامر الولي، فلها مجالها الواسع من البحث.

٢. أهم عنصر في تقديم الأدلة على غيرها

ويمكن القول بأن أهم عنصر يوجب تقديم دليل على آخر هو عنصر (القرينية)، فاذا شكل دليل ما قرينة على المراد من دليل آخر فانه يتقدم عليه باعتباره يكشف عن المراد الجدي من هذا الدليل الآخر.

وهذه القرينة كما يمكنها ان تغير المراد من لفظ واحد اذا اقترن بقرينة صارفة، ـ كما في (الاسد الضاحك) ـ يمكنها ان تصرف المراد في احد الدليلين الى ما يؤدي اليه الدليل الآخر لو شكلّ هذا قرينة له.

وقد نتصور للقرينة موارد منها:

أ ـ حالة التخصيص، حيث يتم الاخراج من الحكم مع بقاء المورد موضوعاً.

ب ـ حالة التخصص، حيث يتم الخروج الموضوعي الوجداني.

ج ـ الحكومة، حيث ينظر احد الدليلين الى الآخر موسعا تعبدا كما في (ان الفقاع خمر)، او مضيقا كما في (لا ربا بين الولد ووالده).

د ـ الورود، حيث يأتي دليل شرعي ينفي الموضوع وجدانا، ولكن بواسطة تعبد شرعي، كما في نسبة دليل حجية خبر الواحد الى دليل الاصل العملي الذي موضوعه هو الشك، فان الشك يرتفع بمعونة التعبد الوارد من دليل حجية الخبر.

الترتيب المنطقي

اذا عرفنا الأمور السابقة امكننا ان نوضح الترتيب المنطقي على النحو التالي:

أولاً - مرحلة البحث عن الحكم الشرعي الواقعي عبر الأدلة الاجتهادية كالكتاب والسنة والاجماع.

ثانياً - مرحلة البحث عن الحكم الشرعي المنزّل منزلة الواقع، في مثل دليل الاستصحاب واصالة الصحة وقاعدة التجاوز.

ثالثاً - مرحلة البحث عن الموقف العملي والوظيفة الشرعية عند غياب الواقع بكل مراتبه، كأدلة البراءة الشرعية، والاحتياط الشرعي.

رابعاً - مرحلة البحث عن الموقف العملي كما يحدده العقل، كأدلة البراءة العقلية - لو قلنا بها - او التخيير او الاحتياط. وهذا الترتيب انما يقوم على قوانين الحكومة والورود.

فعندما يوجد دليل يكشف عن الواقع بنفسه فليس هناك مجال للرجوع الى دليل الاستصحاب - مثلاً - الذي إنما ينزل مؤداه بمنزلة الواقع الذي يفترض انه غائب وليس بغائب هنا.

ومن الملاحظ ايضاً ان هذه المناطات في التقديم هي التي تقدم أدلة الاحكام الثانوية من قبيل (لا ضرر) و(لا حرج) على ادلة الاحكام الاولية، كالوضوء والصلاة والحج، كما تقدم أدلة الاحكام الولائية على ادلة الاباحة باعتبارها ناظرة اليها وقرينة عليها.

وعلى هذا نستطيع ان نكتشف عدم الدقة في كثير من المناهج التي طرحت لعملية الاستدلال والتي بدأت مباشرة ببعض الاصول العملية الشرعية، بل وربما بدأت مطلقاً بالاصول العقلية، من قبيل بعض من استدلوا لاعتبار شرط الاعلمية في من يجوز تقليده بقاعدة (انه متى ما دار الأمر بين التعيين والتخيير فالمدار على التعيين)، ولما كان الامر هنا يدور بين تعيين الاعلم والتخيير بينه وبين العالم فالمتعيّن هو لزوم تقليد الأعلم

لحصول اليقين فيه بالخروج عن عهدة التكاليف.

ولسنا هنا بصدد شرح هذه القاعدة أو نقدها بقدر ما نريد الاشارة الى ان المسلك الطبيعي في مثل هذا المورد هو مناقشة الأدلة الاجتهادية التي تطرح، من قبيل ادّعاء جريان السيرة القطعية لدى المسلمين جميعاً على عدم التقيد بالرجوع الى الأعلم عند الاستفتاء، رغم وجود علم إجمالي بالتخالف بين الصحابة والعلماء في نوعية الاستنباط.

وقد لاحظت أثناء مناقشات مجمع الفقه الاسلامي الدولي ان سير الاستدلال هناك في كثير من موارده يعتمد إمّا على الاستناد الى اقوال الأئمة او حتى الى المجتهدين في إطار المذاهب، او الاستناد الى أدلة مختلفة المراتب في الاستدلال، كالاستناد الى بعض الأصول المحرزة للواقع قبل تحقيق الامر في الادلة الاجتهادية. وهذا الامر طالما اعترضت عليه في جلسات المجمع المتتابعة. حيث أكّدت على ان العملية الاجتهادية الحرة يجب ان تسلك السير الطبيعي. على أن اقوال الأئمة والعلماء إنما يستانس بها للاطمئنان الى النتائج المستنبطة لا أكثر، اللهم إلا إذا شكلت إجماعا فان المجال سيختلف.

ثم ان هناك بعض النصوص التي جاءت في كتب العلماء متحدثة عن سبل الاستدلال ربما أمكن مناقشتها في ضوء البحث السابق، ومنها النص الوارد عن حجة الاسلام الغزالي في كتابه (المستصفى من علم الاصول) حيث يقول في الفن الثالث من القطب الرابع ـ وهو يتحدث عن بيان ترتيب الأدلة، ويجب على المجتهد في كل مسالة ان يرد نظره الى النص الأصلي قبل ورود الشرع، ثم يبحث عن الادلة السمعية المغيرة، فينظر أول شيء في الاجماع فان وجد في المسالة إجماعاً ترك النظر في الكتاب والسنة فانهما يقبلان النسخ والاجماع لا يقبله، فالاجماع على خلاف ما في الكتاب والسنة دليل قاطع على النسخ إذ لا تجتمع الأمة على الخطأ، ثم ينظر في الكتاب والسنة المتواترة وهما على رتبة واحدة لان كل واحد يفيد العلم القاطع. ولا يتصور التعارض في القطعيات السمعية إلا بان يكون أحدهما ناسخا، فما وجد فيه نصا من كتاب او سنة متواترة اخذ به. وينظر بعد

ذلك الى عمومات الكتاب وظواهره، ثم ينظر في مخصصات العموم من أخبار الآحاد ومن القياسات فان عارض قياس عموما، او خبر واحد عموما فقد ذكرنا ما يجب تقديمه منها، فان لم يجد لفظاً نصاً ولا ظاهرا نظر الى قياس النصوص، فان تعارض قياسان او خبران أو عمومان طلب الترجيح، فان تساويا عنده توقف على رأي وتخير على راي آخر)[1].

فالترتيب لديه يتم على النحو التالي:

١ ـ مقتضى قاعدة نفي التشريع قبل ورود الشرع.

٢ ـ الأدلة المخالفة لهذا الاصل في هذا المورد بخصوصه.

وهنا يرجع أولاً الى الاجماع، فإن وجد كفى الأمر، وإلا تمّ الرجوع ثانياً الى النصوص المتواترة لفظاً وسنداً كالكتاب في نصوصه، والسنة المتواترة في نصوصها التي لا تقبل الخلاف. ثم يرجع ثالثاً الى الظواهر والعمومات، وما يطرأ عليها من مخصصات خبرية أو قياسية، وبعد ذلك يرجع للأقيسة فان تعارضت رجح الأقوى وإلا فالتوقف أو التخيير.

ولسنا بصدد المناقشة المستفيضة لهذا النص وهذا المنهج، ولكننا نشير الى النقاط التالية:

١ ـ الظاهر انه يقصد من النفي الأصلي استصحاب عدم الجعل قبل مجيء الاسلام، او استصحاب عدم الحكم المجعول في حق المكلف حال الصغر، وهذا المعنى نوقش اصولياً، باعتبار ان المراد هل هو استصحاب عدم ثبوت التشريع بحقّ هذا الفرد أو ذاك، فهذا لا يتحقق لعدم وجود حالة سابقة او حالة لاحقة بالنسبة لهما، ام هو استصحاب عدم الجعل الكلي، والذي يلازمه ـ عقلا ـ عدم وجود حكم لنا في هذا العصر، فهو استصحاب مثبت لا قيمة له ولا يثبت لوازمه، كما انه قد يشكل على مسالة استصحاب عدم الحكم

---

(١) المستصفى من علم الأصول، ج٢، ص ٣٩٧ ـ ص٣٩٣.

المجعول حال الصغر الى ما بعد البلوغ، بأن المورد من موارد تبدل الموضوع. ثم ان استصحاب عدم الجعل هذا لا يجري لوجود علم اجمالي بالجعل في كثير من الموارد المشكوكة، ولا يجري الاستصحاب مع وجود علم إجماليّ في اطرافه.

٢ ـ ان اللجوء أولاً الى البراءة يعني اللجوء الى الرتبة المتأخرة، ولا يجأ إليه الا عند فقدان الدليل الاجتهادي الناظر الى الواقع أو الدليل المنزل لمؤداه منزلة الواقع.

٣ ـ لا ندري كيف يمكن تصور إجماع على خلاف الكتاب والسنة؟ ومدى حصوله وكيفيته، فاذا لم يمكن تصور حصوله، لم يكن هناك مجال لتصور النسخ من خلاله للكتاب والسنة، على اننا لا نتصور للاجماع حجية في ذاته، ولكن بمقدار ما يكشف عنه من حكم شرعي.

ولا ندري كيف يمكن ان يعتمد الفقيه على ما بدا له من اجماع دون الرجوع الى الكتاب والسنة؟

ثم إن الاجماع نفسه ـ لو اعتبرناه دليلا قائما بذاته ـ يقف الى صف الكتاب والسنة في الكشف عن الواقع، فكيف يمكن ان نعدّه مقدما عليهما بحجة انه لا يقبل النسخ وهما يقبلانه؟

٤ ـ ولم يشر عند ذكر عمومات الكتاب وظواهره الى عمومات السنة وظواهرها، فان حالها في التخصيص والتقييد كحالها في الكتاب.

٥ ـ وعندما يتساوى الدليلان لديه فيستحكم التعارض، فان مقتضى القاعدة هو التساقط، ولا مجال للتوقف أو التخيير.

٦ ـ ولم يتضح لدينا معنى التوقف الا ان يريد به الاحتياط، وهو خلاف المصطلح.

٧ ـ ثمّ انه بعد فقدان الدليل الاجتهادي، يجب التوجه الى الأصول الاحرازية للواقع ـ كالاستصحاب ـ لا العبور مباشرة الى الأصول العملية الأخرى.

٨ ـ على ان هذه الأصول الأخرى، منها ما هو شرعي فيتقدم وما هو عقلي فيتأخر رتبة.

وهكذا نجد ان هناك الكثير من التساؤلات التي قد تبقى بلا جواب في هذا المنهج.

رأي الإمام الجويني في ترتيب أصول الفقه

ولا يفوتني هنا ان أشير الى ان علم أصول الفقه يقوم على أسس منطقية متينة، تنطلق أساسا من التصور الدقيق عن واقع الشريعة، وعن السبل الكاشفة عنه وليس علماً سمعياً ماخوذا من سيرة الصحابة او الأئمة رغم عظمة مكانتهم، وهو الراي الذي ذكره امام الحرمين الجويني، اذ يقول عن اصول الفقه: إنه نظم ما جاء من سير الصحابة الأكرمين، وضمّ ما بلغنا من عبرهم، ولو كانوا عكسوا الترتيب لاتبعناهم، ويضيف: (نعم، ما كان يعتني الكثير منهم بجمع ما بلغ الكافة من اخبار رسول الله (ص)، بل كانت الواقعة تقع فيبحث عن كتاب الله، وكان معظم الصحابة لا يستقل بحفظ القرآن ثم كانوا يبحثون عن الأخبار فان لم يجدوها اعتبروا ونظروا وقاسوا)[1].

وهناك مواقع للنظر في هذا النص منها:

أولاً - ما قلناه قبل قليل، من ان علم اصول الفقه قائم على أسس موضوعية، وليس تدوينا لاسلوب معين من الاستنباط قام به المجتهدون الاوائل، ومن الغريب انه نفسه كان يرجح مذهب الامام الشافعي على راي بعض الصحابة باعتبار دقة للنهج فيه.

ثانياً - لم يثبت ان الصحابة ما كانوا يتحرون الآيات كلها والأخبار كلها قدر الامكان.

ثالثاً - نستطيع ان نقرر ان الاجتهاد آنذاك لم يكن بالمستوى من التعقيد كما نراه اليوم، نتيجة لقرب العهد، ووضوح القرآن، وكثرة الشهود، ووضوح المقصود، وحضور القرائن، ونقاء النصوص النبوية، وسلامتها من التحريف أو الوضع. الامر الذي كان يسهل الاستنباط. وهذا لا يعني ان نعتمد نحن نفس الاسلوب على ما فيه من سهولة بعد تغيّر الأحوال، وهذا ما لا يحتاج الى استدلال.

---

(١) غياث الأمم في التياث الظلم، الأمام الجويني، البند ٥٧٨، ص٤٠٦.

رابعاً - الاعتبار والنظر والتأمل والدقة في الاستنباط من القرآن والسنة شيء، والقياس المشار اليه في آخر العبارة شيء آخر، اذا لاحظنا انه مصطلح متأخر له شروطه وقوانينه، ولذا لا يمكننا ان نسند لهم بكل وضوح قيامهم بالعملية القياسية، وغالبا ما نسب اليهم بل واحياناً الى الرسول الكريم(ص) وهو (ما ينطق عن الهوى) إنما هو في الواقع تنقيح لصغريات وتطبيق لكبريات وعمومات على مواردها، وهذه أمور ينبغي توضيحها في محلها.

خامساً - لا ريب في انهم (رض)، كانوا يعملون بالاستصحاب والبراءة والاحتياط، كل في موارده بعد ورود النصوص الشريفة في ذلك، إلا ان النص قد تجاوز كل ذلك.

وفي ختام هذا البحث، لابد لي من التنبيه على امور لها دخلها في عملية الاستنباط الصحيح وفق المنهج القويم، وربما كانت الاشارة من باب الاستطراد.

الامر الأول:

إن من المسلم به ان هذا البون التاريخي الشاسع بيننا وبين عصر النص الشريف حمل معه مضاعفات عديدة - كما يقول المرحوم الشهيد الصدر - (كضياع جملة من الاحاديث ولزوم تمحيص الأسانيد، وتغيير كثير من اساليب التعبير وقرائن التفهيم والملابسات التي تكتنف الكلام، ودخول شيء من الدس والافتراء في مجاميع الروايات، الأمر الذي يتطلب عناية بالغة في التمحيص والتدقيق، هذا إضافة الى ان تطور الحياة يفرض عدداً كثيراً من الوقائع والحوادث الجديدة لم يرد فيها نص خاص، فلابد من استنباط حكمها في ضوء القواعد العامة ومجموعة ما اعطي من اصول وتشريعات)[1]. ثم (ان الحقيقة الاسلامية اعطيت منثورة في المجموع الكلي للكتاب والسنة، وبصورة تفرض

---

(١) الفتاوى الواضحة، الامام الشهيد الصدر، ص ٤ - ٥.

الحاجة الى جهد علمي في دراستها)[1].

وإذا كان الامر كذلك، فمن الطبيعي ان لا يترك هذا الامر لكل وارد، وإنما يجب ان يقوم به المتخصصون، المحققون الذين يملكون ملكة الاجتهاد ويقدرون على استنباط الحكم وتنقيح المواضيع بدقة.

فاذا اضفنا الى الحقائق السابقة، حقيقة أخرى يتطلبها توحيد الموقف وتحديد المسار العام، خصوصا اذا تعلق الامر بالقضايا الحساسة والمصيرية والمشاكل الاجتماعية المستعصية، والمسائل المستحدثة التي لها مساقط واسعة، وجدنا ان من الضروري ان تشكّل المجامع العلمية المشهود لها بالقدرة والنزاهة والموضوعية، ليتم فيها تبادل الرأي في الحكم الشرعي، وفق المنهج السليم المحدد والضوابط الاجتماعية الدقيقة، كما يتم فيها تحديد الموضوعات وملاحظة ملابساتها. وتحديد الموضوع له الدور الكبير في معرفة نوع الحكم بلا ريب، ولا يتم ذلك في كثير من الموارد إلا بحضور الاختصاصيين في الطب والفلك والبيئة وأمثال ذلك وتبعا لنوع الموضوع المبحوث عنه.

والحقيقة هي ان الادلة التي قررت مشروعية الاجتهاد والتقليد، لا تقرر هذه المشروعية للآراء المجمعية فحسب، بل تكاد تفرض ضرورتها أحيانا. هذا وقد تمت بعض الخطوات على هذا السبيل من قبيل تشكيل مجمع الفقه الاسلامي بجدة ومجمع فقه اهل البيت (ع) في الجمهورية الاسلامية الايرانية، من قبل قائد الثورة الاسلامية آية الله الخامنئي (دام ظله) وكذلك مجمع البحوث الاسلامية في القاهرة، وهي خطوات قيّمة ولكنها تحتاج الى تطوير مستمر.

الامر الثاني:

قلنا إنه لا ريب في توقف عملية الاستنباط وإصدار الحكم على تنقيح الموضوعات وتحديدها، فالحكم يتغير بتغير الموضوع، وربما ينقلب الى نقيضه في الحلية او الحرمة. ولا

---

(١) المصدر السابق.

يمس هذا مسألة اثبات الاحكام، فحلال محمد (ص) حلال الى يوم القيامة، وحرامه حرام الى يوم القيامة.

والتغير تارة يكون في الموضوعات من داخلها كتغير اللحم النجس الى تراب ورماد مما يغير حكمه الى الطهارة، واخرى يكون التغيّر من الخارج اي بتغير عنصري الزمان والمكان، فهل يمكن تصور هذا التغيير بحيث يترك اثره على تغيّر الحكم؟

الملاحظ ان هناك اتجاهين خطيرين متطرفين ازاء هذا الموضوع، فالاتجاه الاول يرفض اي دخل لهذا العنصر في الموضوعات ويجمد عليها، بل وينكر التغيير في الزمان نفسه فيفترض بقاء الظروف الزمانية على ما هي عليه، والشروط الاجتماعية على ما هي عليه من بساطة رغم كل هذا التعقيد الاجتماعي الملحوظ.

وهناك اتجاه آخر ينفتح الى حد الميوعة فيفترض لهذا العامل دخلا دائماً مما يؤدي في نهاية الامر الى فناء الشريعة وتبدل الاحكام وفق الاهواء، وهو اتجاه خطير بدوره. وما نراه من موقف صحيح، هو الرجوع الى دليل الحكم ولسانه لمعرفة التحديد الذي يقرره للموضوع، فان كان يطلق الامر دونما تحديد فليس لنا الخروج عن الدائرة التي يرسمها، وإن كان يسمح حسب الفهم العرفي بمستوى معين من التدخل للزمان، سرنا معه ولاحظنا هذه المرونة فلا نحمّل النص ما لا يتحمل من امتداد ولا نقعد عن ارتياد الآفاق التي يفتحها بحجة الاحتياط.

هذا هو المنهج الذي نراه منسجما مع الحقيقة الشرعية المقررة ونرى العدول عنه خطيرا جدا.

إن موضوع تحريم الربا وتحريم الخمر، والسماح بالزواج وإقامة المجتمع على اساس عائلي، من المواضيع التي لا تتدخل فيها التغيّرات الزمنية كما يبدو ذلك من ادلتها. في حين لا نجد في مواضيع من قبيل الشورى وتنظيم النسل، والمباحات العامة ومناطق

الفراغ المتروكة للحاكم الشرعي، لا نجد فيها تحديدات تمنع من تدخل عنصري الزمان والمكان في صياغة نوع الحكم فيها.

أقول هذا، وارفض مطلقاً أن ننسى وظيفة المجتهد في الوصول الى الحجّة الشرعية عن طريق القطع إمّا بالحكم او بحجية الوسيلة الموصلة اليه.

الامر الثالث:

قلنا إن هناك احكاماً اوّلية ذكرتها الشريعة للأشياء في حدّ ذاتها وبغض النظر عن عوارضها. كما ان هناك احكاما ثانوية، تنتجها الظروف القاهرة كالاضطرار والاكراه والضرر والحرج. فهي امور تطرأ على الاشياء فتبدّل من احكامها، ثمّ إنّ هناك احكاماً ولائية يصدرها وليّ الامر وفق ما يراه من مصلحة لتسيير دفّة الحكم ويغير بها أحكام الكثير من المباحات الاولية، فهي بالتالي أحكام طارئة، وإن كانت إطاعة ولي الأمر الشرعي نفسها من الأحكام الاولية.

ولسنا هنا بصدد بيان المساحات التي تنفذ فيها أوامر ولي الامر، بقدر ما نحن بصدد بيان هذه الحقيقة، وهي ان الاصل في الحياة الطبيعية إنما هو الأحكام الأولية، وكلما قربت الحياة اليها قربت الى الصورة الاسلامية طبعا، مع ملاحظة ان الشريعة نفسها فسحت المجال لوليّ الأمر بالتدخّل وأعطته الضوابط العامة والأضواء الكاشفة التي تساعده على ممارسة هذه العملية. ولكن يبقى الحكم الأولي هو الأصل، تعود اليه الحياة متى سمحت الظروف وارتفعت الطوارئ.

ولا ننسى ان نشير الى ان هناك مباحات أكد الشارع الكريم إباحتها ـ ولو بالمعنى العام الشامل للمكروه والمستحب ـ وحينئذ فمن الصعب جدا حتى لولي الأمر ان يحد منها، اللهم إلا في الظروف القاهرة جدا، فاباحة الزواج تختلف في لسان الشارع عن إباحة المشي وأمثاله،

وهذه امور ينبغي التركيز عليها والتدقيق فيها والاحتياط في مجالها للدين.

ملاحظة:

وفي ختام هذا الفصل لابد ان نشير الى ان بحثنا انصب على الخلافات الفقهية، اما الخلافات في المجالات الاخرى فهي بحاجة ايضا الى توحيد المناهج فيها بالشكل الذي يناسبها مع اضافة مجالات اخرى للبحث كما هو الامر مثلا في:

أ – بحوث علم الكلام الجديد.

ب – بحوث فلسفة الحضارات وسننها.

ج – بحوث المستقبليات والاستراتيجيات.

د – البحوث النفسية والاجتماعية والطبيعية المؤثرة في تشخيص الموضوعات.

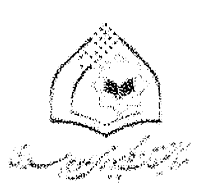
هـ – البحوث النظرية المقارنة بين المذاهب وغيرها.

الفصل الثالث

فكرة

عن رواد الوحدة الاسلامية

والتقريب



فكرة عن رواد الوحدة الاسلامية والتقريب

تنتشر فكرة التقريب بين المذاهب الاسلامية بشكل جيد، ويقبل عليها العلماء والمفكرون من شتى انحاء العالم الاسلامي، وتعقد المؤتمرات الدولية، والندوات الاقليمية والمحلية كما راينا في ايران وسوريا والاردن والجزائر والبحرين وماليزيا وحتى في روسيا وكندا وغيرها. وتتزايد الكتب التي تصب في هذا المصب، وتقوم اقسام جامعية لهذا الغرض كما في الجامعة العالمية في ماليزيا، بل وتنشا جامعات تستهدف ذلك كما في الجامعة العالمية في ماليزيا، وجامعة اهل البيت(ع) العالمية في عمان، وجامعة المذاهب الاسلامية بطهران ، وتجعل المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم (الايسيسكو) التقريب اهم اهدافها، ويشكل مجمع الفقه الاسلامي الدولي لجنة خاصة من العلماء عنوانها (شعبة التقريب بين المذاهب الاسلامية).

كل هذا يوضح الاستقبال الكبير لهذه الفكرة.

ويمكننا ان نعلل هذا الترحيب والتقبل لفكرة التقريب بامور أهمها:

اولاً: منطقية الفكرة ، وكونها مقتضى طبيعة الانسان عموماً، وانسجامها مع منطق الحوار الانساني السليم.

وثانياً: امتلاكها للجذور الاسلامية الراسخة، باعتبار ان الاسلام اكد على الحوار السليم ووضع له نظريته واسسه واهدافه وشروطه، واكد على اكتشاف المشترك مع الآخر والتعاون فيه. هذا من جهة عامة، ومن جهة خاصة فان المذاهب الاسلامية تشترك

في وحدة مصدر الفهم والتشريع وهو الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، وبالتالي تشترك في مساحة تاريخية وعقدية وتشريعية ضخمة. ويؤكد الاسلام هذه المسيرة بالدعوة الى الوحدة باعتبارها اكبر خصائص هذه الامة، وتقوم هذه الوحدة على الاخوة الاسلامية الحميمة والتي لا تنفصم عراها.

وثالثاً: لتكالب الاعداء على هذه الامة وارتفاع وتيرة التامر على هويتها ووجودها، والتامر لا يفرق بين مسلم ومسلم، ومنطقة واخرى. وقد اتحدت القوى المتنازعة فيما بينها لتهزم هذه الامة الامر الذي يدعوها هي للاتحاد ونسيان الخلافات الجانبية واتخاذ الموقف العملي الموحد لمواجهة التحديات المصيرية، يقول تعالى: (والذين كفروا بعضهم اولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير) .

اما العامل الرابع . فهو انضمام ثلة من كبار العلماء والمفكرين والمصلحين الى هذه الدعوة مما اعطاها ثراءً وقوة ، وفسح المجال لنفوذها الى القلوب والعقول. وهذا هو ماتود هنا الحديث عنه بشيء اكثر تفصيلاً، فما ان بادر عالم ايراني هو العلامة القمي للاجتماع بعلماء الازهر الشريف حتى وجد الآذان الصاغية والقلوب المنفتحة، والتاييد الجيد، مما مهد لايجاد دار التقريب في القاهرة بتاريخ (ربيع الاول ١٣٦٨ يناير ١٩٤٩) . ولم تمض الا مدة قصيرة حتى انضم الى هذه الدعوة كبار العلماء والمفكرين والدعاة، وما ان صدرت (رسالة الاسلام) وهي المجلة الرائدة في هذا السبيل حتى تلقفتها العقول واشتركت فيها الاقلام الممتازة لتشكل من خلال اعدادها الستين وعلى مدى (٢٣) عاماً منبعاً ثراً خيرا وموسوعة مباركة تمهد السبيل للوحدة الاسلامية.

قائمة باسماء بعض الشخصيات التقريبية

وسنقتصر فيها على ذكر بعض الشخصيات الراحلة (على ان في الاحياء العشرات من الشخصيات الوحدوية) وسنبدا اولاً بذكر الشخصيات السنية ونتبع ذلك بذكر

الشخصيات الشيعية مكتفين بذكر الاسماء وبعض ما اثر عنها كما ياتي:

١. الامام الشيخ محمود شلتوت (شيخ الازهر):

ويعد من ابرز دعاة التقريب، اذ اشتهر بفتواه المعروفة التي وضعت اساساً متيناً للتاخي بين السنة والشيعة، ورفعت الغبش في نظرة كل منهما للآخر. ولقد كان (رحمة الله) موضوعياً في تصوراته الى حد بعيد ويدعو للموضوعية دائماً، فهو يقول - مثلا - عن المرحوم الطبرسي - وهو من علماء الامامية الكبار ومن مؤلفاته تفسير (مجمع البيان) - يقول عنه:

(قد استطاع الى حد بعيد ان يغلب اخلاصه للفكرة العلمية على عاطفته المذهبية... فاننا لا نراه مسرفاً في مجاراة هذه العاطفة ولا حاملاً على مخالفيه ومخالفي مذهبه).

ويضيف (فاول شيء على المسلمين واوجبه على قادتهم وعلمائهم ان يتبادلوا الثقافة والمعرفة وان يقلعوا عن سوء الظن وعن التنابز بالالقاب، والتهاجر بالطعن والسباب). [١]

٢. الامام الشيخ عبد المجيد سليم

وهو ايضاً من اكبر الدعاة الى الوحدة الاسلامية والتقريب، وكان العدد الاول من مجلة (رسالة الاسلام) مزيناً ببيانه الهام الذي يوضح ان مسالة التقريب عميقة الجذور في تاريخنا وتراثنا، فيقول فيه: (ولقد كان اصحاب رسول الله(ص) والتابعون لهم باحسان والأئمة عليهم الرضوان ، يختلفون، ويدفع بعضهم حجة بعض، ويجادلون عن ارائهم بالتي هي احسن، ويدعون الى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم نسمع ان احداً منهم رمى غيره بسوء... ولكن المسلمين لم يلبثوا ان انحرفوا عن هذه السبيل، واتخذوا من خلافاتهم عصبيات جامدة لا تعرف التفاهم).

ويعتبر المرحوم اول من راسل الامام البروجردي وشكره على دعمه لفكرة التقريب فكان يرد عليه بكل احترام ويعتبره ممن وقفوا انفسهم لخدمة الامة. ويروي المرحوم

---

١ - مقدمته لمجمع البيان المطبوع في القاهرة.

القمي في مذكراته.[١] ان المرحوم الشيخ سليم كان يعتزم اصدار نفس الفتوى التي اصدرها شلتوت وقبل عشر سنوات الا أن الايدي الخبيثة خلقت زوبعة حول الموضوع واجلت الصدور. هذا وقد اعتبر الامام كاشف الغطاء بيان الشيخ سليم فتحاً مبيناً جاء على لسان هذا العالم الكبير المسؤول .

٣. الامام الشيخ سليم البشرى شيخ الازهر

ويعرف علو ادب المرحوم من نفس مكاتباته مع المرحوم الامام عبد الحسين شرف الدين والتي نشرت في كتاب (المراجعات)، ليعبر عنه المرحوم شرف الدين بانه (من المبرزين بعقل واسع، وخلق وادع ، وفؤاد حي، وعلم عليم، ومنزل رفيع يتبوؤه بزعامته الدينية، بحق واهلية) [٢].

ويقول هو في اول كتبه للسيد شرف الدين (وما انا فيما ارفعه بباحث عن عثرة او متتبع عورة ولا بمفند أو مندد وانما انا نشاد ضالة وبحاث عن حقيقة) [٣].

٤. الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي

وهو احد الرواد في هذا السبيل، واحد الدعاة المتقدمين الى فتح باب الاجتهاد وجواز تقليد غير الأئمة الاربعة متى صح النقل عن غيرهم[٤] وفتح باب الفقه المقارن بالازهر. ويقول (رحمه الله تعالى) عن الوحدة: انه عند التأمل نجده (الاسلام) يرمي الى الوحدة في جميع التكاليف، ذلك لان الوحدة اساس الاصلاح في الحياة الدنيا، واساس العزة والسلطان[٥].

٥. الاستاذ حسن البنا

مؤسس حركة الاخوان المسلمين. ودور هذا الانسان للفكر الحركي الكبير في انشاء

---

١ - المنشورة في رسالة الاسلام.

٢ -رسالة الاسلام ع ٣، ص ٢٣٧ .

٣ - المراجعات طبعة القاهرة ، ص ٢.

٤ - رسالة الاسلام ، ع ٤.

٥ - الوحدة الاسلامية للشيخ بي آزارشيرازي ملف التقريب ، ص ٤٩٧.

(دار التقريب) ودعمها ونشر فكرها معروف وباهر، حتى ان تسمية الدار كانت باقتراح منه، وقد طبعت مناسك الحج على المذاهب الخمسة من قبل مؤسسته، ووزعت في موسم الحج، وحج المرحوم البنا تلك السنة والتقى بآية الله الكاشاني زعيم حركة تاميم النفط في ايران[١].

٦. الامام البحاثة الشيخ محمد ابو زهرة

وقد كتب في الوحدة الاسلامية مقالات واكد فيها ان اول خطوات الوحدة من الناحية العملية ان يتم التوحيد الفكري والنفسي بين الشعوب الاسلامية في ظل هيئة علمية تعنى بالقرب مابين الطوائف الاسلامية، وان يعمل على منع النزاع بين الاقاليم الاسلامية وان يعرف المسلمون انفسهم بلغة جامعة هي العربية[٢].

٧. الشيخ البحاثة على الخفيف

وهو احد الاعضاء المؤسسين لجماعة التقريب. يقول في احدى مقالاته في ذيل الآية الشريفة الرابعة والعشرين من سورة التوبة (قل ان كان اباؤكم...)، وان المسلمين آمنوا بهذه الآية الايمان الذي يظهر أثره في نفوسهم واعمالهم وآمنوا كذلك بما نزل في التفرق بسبب الاختلاف في الدين مثل قوله تعالى: (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)[٣]. ما فرقت بينهم المذاهب الدينية ولا الاهواء السياسية ولا العصبيات الجنسية)[٤].

٨. الشيخ الامام محمد محمد المدني

وكان من الاوائل في هذه الحركة، والمجاهدين في سبيلها، وارتبط به الشيخ القمي فكرياً وعاطفيا، حتى انه حين سمع بنبا اصطدامه تضرع الى الله ان يقبل منه حياته فداءً للشيخ المدني. ومقالات المرحوم المدني في مجلة (رسالة الاسلام) علمية وداعية دائماً

---

١ - ملف التقريب، تاليف الدكتور آذرشب ص ١٣٨.

٢ - الوحدة الاسلامية للشيخ الدكتور بي آزار الشيرازي .

٣ - الانعام، ١٥٩.

٤ - الوحدة الاسلامية، ص ١٤٨.

للتوحيد. وقد وصفه الامام شرف الدين بقوله (بطل من ابطال الفكر والعلم والجهاد وحسن البلاء، العلامة الدرّاكة) [١].

وكان ايضاً من المؤسسين لدار التقريب في القاهرة، وبقي الى نهاية عمره الشريف يعمل لهذا الهدف.

٩. العلامة الشيخ محمد سرور الصبان

وكان من كبار رجال الدولة السعودية، وقد بعث برسالة للامام عبد المجيد سليم بمناسبة عودته لمشيخة الازهر يمدح فيها جهوده وسعيه للتقريب بين المذاهب الاسلامية، فاجابه المرحوم سليم بقوله (انه لا صلاح للأمة الا بائتلاف قلوبها واتحاد ابنائها وتعاونهم على البر والتقوى ونسيانهم ماكان سبباً في فرقتهم) [٢].

١٠. الامام الشيخ حسنين محمد مخلوف

وقد كتب (رحمه الله) يقول: (انني من المؤمنين بفكرة التقريب العاملين على ان يدرك المسلمون جميعاً مزاياها وماتؤدي اليه) [٣].

١١. المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدي

وكم كتب عن الموضوع من المغني المفيد وهو يقول: (التقريب بين المذاهب الاسلامية غاية من اسمى الغايات وهي السبيل الى عودة المسلمين الى سابق مجدهم) [٤].

١٢. المجاهد التونسي السيد محيي الدين القليبي

وله كلمات جيدة في الوحدة وقد تحدث عن عبارة اعجب بها من المرحوم السيد ابي القاسم الكاشاني حين سئل عن رايه في الخلاف بين السنة والشيعة فاجاب: انا مسلم لا أعرف الا الاسلام الذي جاء به محمد(ص) من عند ربه وهو الذي يجب ان يتحد عليه

---

١ - رسالة الاسلام المجلد العاشر ، ص ١٠٨.

٢ - المصدر السابق، م ٤، ص ٢٢٠.

٣ - الوحدة الاسلامية، ص ٥١.

٤ - المصدر السابق، ص ٨٢.

المسلمون اما ماعدا ذلك فلكلٍ ان يحتفظ بما عنده لنفسه)[1].

١٣. المرحوم الشيخ محمود فياض

استاذ الازهر الشريف وقد اعتبر ان ايسر وسيلة لجمع الكلمة واعزاز المسلمين هي (التقريب بين المذاهب الاسلامية باعتباره دعوة للتعاون على البر والتقوى)[2].

١٤. الامام ابو الاعلى المودودي

وكان طودا شامخاً وداعية للاسلام الشمولي، ورافضاً للتعصب والتقليد الاعمى محارباً للدعوات التمزيقية، معتبرا الشهادتين ملاك الاخوة[3].

١٥. المرحوم الشيخ محمد الغزالي

وهو ايضاً من الرواد، وقد بقي يطرح الفكرة هنا وهناك مجاهدا منافحاً داعياً لاصلاح الافكار والقلوب والتقريب بين المذاهب، وجعل الفقه فقه دعوة لا فقه فرقة[4].

١٦. المرحوم الاستاذ احمد امين

وهو يقول: (ولو احصينا ماكان بينهم - اي السنة والشيعة - من عهد علي (رض) الى الآن لبلغت حوادثه المجلدات الضخمة، كلها خلاف وكلها دماء، ولو كان انفق هذا الجهد في سبيل الاصلاح لبلغ المسلمون ذروة المجد)[5].

١٧. الاستاذ الشيخ محمد عرفه

١٨. الاستاذ الشيخ يس سويلم طه (من علماء الازهر).

١٩. الاستاذ المحقق الموسوعي محمد فريد وجدي.

٢٠. الاستاذ الكاتب الكبير عباس محمود العقاد

---

١ - المصدر السابق، ص ٨١.

٢ - المصدر السابق، ص ٩٩.

٣ - راجع مقالنا عنه في رسالة التقريب العدد ٣٨، ص ١٧١.

٤ - راجع مقال الاستاذ جواد جميل عنه في رسالة التقريب العدد ٣٦ ص ٢٧٣.

٥ - راجع مقدمته على كتاب (تاريخ القرآن) للشيخ ابي عبد الله الزنجاني.

وتاييده للمرحوم الامام شلتوت رائع[1].

٢١. الاستاذ محمد عبد الله دراز.

وقد اعتبر انشاء جماعة التقريب ايذاناً بعهد جديد للمسلمين[2].

٢٢. الاستاذ حامد حفني داوود.

وكتاباته رائعه بهذا الصدد، فهو يقول مثلاً: (ونحن ـ اليوم ـ ندعو ان تكون نظرة اهل السنة الى الشيعة الامامية نظرة فقهية بحتة بعيدة عن العصبيات وان ينظر الى الخلافات الفقهية بيننا وبينهم نظرنا الى الخلافات بين الاحناف والمالكية والشافعية والحنابلة)[3].

٢٣. الاستاذ محمد فكري ابو النصر

وهو يؤكد ان العلماء من كل المذاهب يستطيعون ـ اذا اخلصوا النية لله ـ ان يحققوا الوحدة المنشودة[4].

٢٤. العلامة الكبير الشيخ احمد كفتارو

مفتي سوريا وله مواقف كبيرة في خدمة التقريب.

هذه ثلة من العلماء السنة وهناك غيرهم كثر ممن دعموا حركة الوحدة والتقريب ولايمكننا استيعابهم جميعاً.

اما العلماء والمفكرون الشيعة الداعمون لهذا التوجه فهم ايضاً من الكثرة بحيث لايمكن استيعابهم، ولذلك نقتصر على ذكر الشخصيات التالية:

٢٥. الامام البروجردي:

وكان من كبار علماء الشيعة ومرجعهم الاعلى وفي طليعة الداعين للتقريب بين المذاهب الاسلامية .

---

١ - المصدر السابق ص ٥٠٢.

٢ - المصدر السابق ٤٩٧.

٣ - راجع مقدمته لكتاب المراجعات .

٤ - المصدر السابق.

وقد قام بخطوات عملية في هذاالمجال، فدعم مباشرة هذه الحركة، وكان يراقب المسيرة بكل حذر حتى نقل انه اوصى بها وهو على فراش الموت [١].

وكان في كثير من الاحيان يشجع الدراسات الفقهية المقارنة، وفي مجال الدراسات التاريخية دعا لنقل البحث من المرجعية السياسية الادارية بعد الرسول (ص) الى المرجعية العلمية.

لقد كان بحق في طليعة رواد التقريب.

٢٦. الامام الخميني

ومواقف الامام الوحدوية اكثر من ان تحصى، وهو صاحب المقولة الشهيرة: (ان الذين يفرقون بين السنة والشيعة ليسوا سنة ولا شيعة). ويقول ايضا: (ان الثورة الاسلامية لم تشهد ـ بحمد الله ـ اي خلاف بين السنة والشيعة، ينبغي ان يعيش الكل بحب واخوة) [٢].

وقد اتسمت مدرسته الفكرية والفقهية والسياسية بهذه السمة، فتربى عليها اتباعه ومنهم آية الله الخامنئي القائد الثاني للثورة الاسلامية، وقد امر بايجاد المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية في مطلع سنين قيادته.

٢٧. آل كاشف الغطاء

وقد آثرنا هذا العنوان العام لنوضح ان هذا البيت العريق بعلمائه وشخصياته، كان بيت الوحدة، وقد نقل انه نبغ فيهم في القرون الاخيرة خمسة وعشرون مجتهدا كبيرا وفي طليعتهم امام الشيعة الكبير الشيخ جعفر صاحب كتاب (كشف الغطاء) وهو موسوعة فقهية. وقد قام بخطوات عملية تقريبية كبرى، وكذلك ولده الشيخ موسى الذي اشتهر بالاصلاح بين الدولتين العثمانية والصفوية، وولده الآخر الشيخ حسن، واخيرا العلامة الكبير الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، وهو احد الرواد الكبار في حركة

---

١ - ملف التقريب للدكتور آذرشب، ص ١٣٥.

٢ - راجع كتابنا حول الوحدة والتقريب، ص ١١٠.

التقريب وخطواته كثيرة مشهورة[1]. وهو - بنفسه - يشير الى خطبه وبياناته ومؤلفاته خلال اربعين عاماً حول الموضوع،[2] والحقيقة ان هذه الجهود تشكل موسوعة وحدوية كبرى.

٢٨. الامام السيد عبد الحسين شرف الدين:

وهو اشهر من ان يعرّف، لمواقفه الوحدوية ومؤلفاته القيمة في هذا الصدد ومنها كتابه (الفصول المهمة في توحيد الامة) وكان شديد التواصل مع اخوته علماء الازهر الشريف ومراجعاته تشهد لذلك.

٢٩. آل الحكيم:

وهم اسرة عريقة استوطن اجدادها العراق منذ القرن الثاني الهجري وقد برز منها علماء مشهورون. وقدمت تضحيات كبرى. وفي طليعة من ينبغي ذكره في مجالنا هذا الامام السيد محسن الحكيم واية الله السيد محمد تقي الحكيم وآية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم، والواقع فانني اجدني عاجزاً عن توفية هذه الاسرة الكريمة حقها بهذا الصدد.

فالامام السيد محسن الحكيم، علم وفقه وجهاد متواصل، وخصوصاً في مجال الوحدة الاسلامية، فبالاضافة لجهاده تحت راية الخلافة العثمانية قام بدور مشرف في دعم تاسيس دار التقريب، في القاهرة، ودعم وحدة الشعب العراقي بعربه واكراده وشيعته وسنته، وآية الله السيد محمد تقي الحكيم كان طوداً شامخاً في مجال التقريب ويكفيه كتابه الرائع (اصول الفقه المقارن) شاهداً على ذلك[3].

---

١ - يراجع كتاب (العقبات العنبرية) تاليف الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وتحقيق الدكتور جودت القزويني. وكذلك كتاب (النجف الاشرف اسهامات في الحضارة الانسانية) الجزء الاول، ص ٤٢١.

٢ - رسالة الاسلام العدد ٣، الصفحة ٣٦٨.

٣ - راجع ماكتبناه عنه في (الوحدة والتقريب) ، ص ١٧٨.

وآية الله السيد محمد باقر الحكيم هو شهيد الوحدة، وقد ساهم في تأسيس المجمع العالمي للتقريب وراس مجلسه الاعلى لاكثر من عشر سنوات، والف العديد من الكتب، وحاضر وقام بعمل سياسي واجتماعي رائع، حتى اريق دمه الطاهر بعد صلاة الجمعة في النجف الاشرف[1].

٣٠. الامام السيد ابو القاسم الخوئي:

وكان زعيم الحوزة العلمية في النجف، وقد قدم خدمة كبرى للتقريب ببحوثه القيمة، ومنها كتابه (البيان في تفسير القرآن) وقد نشرت (رسالة الاسلام) بحثه الرائع عن (صيانة القرآن من التحريف). فترك اثرا عظيماً، هذا وقد ترك في اولاده وتلامذته هذه الروح، وقد شهدنا نشاطاً جيدا من قبل ولده الشهيد الحجة السيد عبد المجيد الخوئي في مجال التقريب بين المذاهب الاسلامية بل عقد مؤتمرا ضخماً في سوريا للوصول الى استراتيجية محددة له.

٣١. العلامة السيد هبة الدين الشهرستاني:

وكان عالماً موسوعياً مجاهدا قوياً في دعمه لحركة التقريب بين المذاهب.

٣٢. الامام الشهيد السيد محمد باقر الصدر

مرة اخرى اجد نفسي اعجز من ان اكتب عن استاذي الشهيد العظيم الصدر بشكل يفيه حقه، فقد كان الطود الشامخ والامام المخلص لقضية الامة ووحدتها. كان كما يقول الكاتب الكبير رفعت سيد احمد (ضرب المثل فكرا وسلوكاً على كونه ابعد اثرا من حدود الجغرافيا (العراق) ليصبح مؤثرا في العالم الاسلامي كله. ان التمثل الصحيح لسيرة الامام الشهيد تتطلب منا ان نؤكد انها كانت سيرة صراع بين (الحق والباطل)[2].

كان ملكا للرسالة بكل معنى الكلمة، وما الفه كله كان تخطيطا فكرياً وعملياً لعودة الاسلام الى الساحة وتاجيج الصحوة الاسلامية المباركة. ولعلي لا ابالغ اذا قلت ان

---

١ -يراجع رسالة التقريب، العدد ٣٩، الصفحة ١٦٣.

٢ - رسالة التقريب العدد ٤٠ الصفحة ٧٤.

كتاباته يتيمة في هذا المجال.

وكان اروع ماكتب، نداءه للشعب العراقي للثورة على النظام الصدامي، وجاء فيه: (ان الطاغوت واولياءه يحاولون ان يوحوا الى ابنائنا البررة من السنة ان المسألة مسألة شيعة وسنة ليفصلوا السنة عن معركتهم ضد العدو المشترك، واريد ان اقولها لكم يا ابناء علي والحسين وابناء ابي بكر وعمر ان المعركة ليست بين الشيعة والحكم السني، ان الحكم السني الذي مثله الخلفاء الراشدون والذي كان يقوم على اساس الاسلام والعدل، حمل علي السيف للدفاع عنه، اذ حارب جنديا في حروب الردة تحت لواء الخليفة الاول ابي بكر وكلنا نحارب تحت راية الاسلام مهما كان لونها المذهبي..)

وحسبه فخرا ان كتابه (اقتصادنا) يدرّس اليوم في الحواضر الاسلامية دون ان يلاحظ مذهب كاتبه، وان البنوك والصناديق الاسلامية التي بلغت المئات تستلهم اطروحته اللاربوية، وان كتابه (الاسس المنطقية للاستقراء) يشكل شمساً في سماء الفكر المنطقي العالمي، وان فكره اليوم يقود الصحوة الاسلامية في كل مكان .

٣٢. العلامة الشيخ محمد تقي القمي:

وهو ـ بحق ـ المحرك الاول لهذه الحركة، وله الفضل السابق في تنظيمها وقولبتها، ويعتبره الدكتور آذرشب الرجل الذي واصل مسيرة المرحوم السيد جمال الدين في كسر الحواجز الاقليمية والمذهبية بين المسلمين، ويقول عنه الامام شتلوت (ذلك العالم المجاهد الذي لا يتحدث عن نفسه و لا عما لاقاه في سبيل دعوته، وهو اول من دعا الى هذه الدعوة وهاجر من اجلها الى هذا البلد ـ بلد الازهر الشريف ـ، فعاش معها والى جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة على بركة الله، وظل يتعهدها بالسقي والرعاية بما آتاه الله من عبقرية واخلاص، وعلم غزير، وشخصية قوية صبر على الغير، وثبت على صرف الدهر...)[١].

ولا اجد ابلغ من هذا التعبير عن شخصية المرحوم القمي وجهاده.

---

١ - ملف التقريب، ص ٥.

٣٤. العلامة السيد محسن الامين

وكان ـ الى جانب كونه علم الجهاد والعلم النافع ـ علماً شامخاً من اعلام الوحدة والتقريب، وموضحاً جيداً للمقصود منه، مؤكداً (ان الذي يجب ان يدعى اليه الطرفان: التعاون، وتحري الادلة العلمية، والتمسك بالآداب الاسلامية، وتجنب التصرفات غير اللائقة الباعثة على التنفر) وقد حارب الخرافات والسنن الشعبية الباطلة، ولاقى نتيجة ذلك الأمرّين[1].

٣٥. العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

وهو ايضاً من اعلام الوحدة، وقد الف كتابه المعروف (الفقه على المذاهب الخمسة) تحقيقاً لغرض التفاهم ورفد مجلة (رسالة الاسلام) بمقالات على هذا النهج، كالحديث عن الاصول الشيعية و(التقية) وموقع الامامية بين الاشاعرة والمعتزلة، وحديثه الجيد تحت عنوان (الخلاف لا يمنع من الانصاف) وغير ذلك.

٣٦. المرحوم العلامة الشيخ محمد صالح المازندراني

وتشير كتاباته ورسائله الى روح سامية مخلصة لهذه الدعوة اذ يعبر عن مجلة (رسالة الاسلام) بان ما تحويه هو (منتقى الجمان من مشتهى العلم والادب) ويقول ايضا: (فيجب على المجتهدين الجمع بين طرق الصحابة المدون معظمها في الصحاح الستة لاهل السنة وبين طرق اهل البيت المدون اكثرها في الجوامع الثمانية للامامية .. وكل ذلك من غير ان يتشيع سني او يتسنن شيعي) [2].

ويعبر عن الشيخ عبد المجيد سليم بعد وفاته (وقد كان طيلة قيامه بالامر مهدياً الى الطيب من القول والى صراط العزيز الحميد) [3].

---

١ - راجع مقالنا عنه في رسالة التقريب، العدد ٣٧، ص ٢٤١.

٢ - رسالة الاسلام ١٢٤ ، صفحه ٤٠٣.

٣ - رسالة الاسلام ، ٧٤ ، ص ٩١.

٣٧. العلامة الشيخ مسلم الحلي

وله مقالات جميلة في مجلـة رسـالة الاسـلام تؤكـد علـى عمـق هـذه المسـيرة، ورفـض العنعنات الجاهلية .

٣٨. المحامي المفكر توفيق الفكيكي

وله كتابات جيده تصب في هذا الاتجاه

٣٩. العلامة الشيخ عبد الكريم الزنجاني

وجهوده كبيرة في هذا المجال، وقـد دون رحلتـه الشـهيرة الى فلسـطين ومصـر بشـكل جميل.

٤٠. العلامة الشيخ محمد علي ناصر العاملي

وله ايضا حديث جيد مؤثر في هذا المجال

ونكتفي هنا بهذا المقدار ونذكر:

١ـ بانا اشرنـا اشارة عـابرة، وكـان المفـروض ان نطيـل لـولا ان المقصـود التذكـير بـان نجاح الحركة كان معلولاً ـ الى جانب العلل الاخرى ـ لانضمـام هـذه الشخصيات اليها أو دعمها لها.

٢ـ اننا اكتفينا بذكر المرحومين وفي الاحياء الكثير الكثير.

٣ـ اننا ركزنا على مقطع زمني خاص وهو حوالى النصف الثاني من القـرن العشـرين الميلادي والا لطال الحديث وامتدت القائمة.

والله ـ تعالى ـ نسال ان يجعلنا من العاملين المساهمين في انجـاح هـذه الحركـة المقدسـة والمباركة، وصولاً لتعميق الصحوة الاسلامية، وتحقيق الوحدة الاسلامية، وهي الخاصيـة القرآنية المهمة لهذه الامة المرحومة.

هذا وسنعرض فيما يلي منهج ثلاثة من هؤلاء الرادة، وهو ما تسنى لنا لحد الآن.

اولا:

السيد محسن الأمين علم التقريب[*]

يتصور البعض إن هناك عقبات كثيرة عقائدية وتاريخية ومذهبية - وحتى من خلال السنن الشعبية - أمام وحدة الأمة وتقارب المسلمين بالشكل الذي يدخل القضية في متاهات الاستحالة واليأس، ولكننا نعتقد - كما أكد العلامة الكبير الأمين - انهم واهمون كل الوهم: سواء على الصعيد النظري او على المستوى العملي.

وها هي بشائر التقريب تحل محل التفريق، وها هو الأمل يتحقق شيئاً فشيئاً. وها هي جهود القادة من أمثال المرحوم العلامة الأمين تنتج افواجاً من الدعاة لا الى التقارب بين المذاهب الإسلامية فحسب، بل وحتى الحوار البناء بين المسلمين وابناء الأديان الأخرى للوصول الى المساحات المشتركة، ولقد كان (رحمه الله) يتعاطف معهم وربما بكى لحالهم[1].

ولن ننسى بهذه المناسبة موقفه حينما عارض قانون الطوائف الفرنسي، وقال مخاطباً المفوضية الفرنسية: (فانا بصفتي الرئيس الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في سوريا ولبنان ارجو فخامتكم ان تحيطوا علماً باستنكار الشيعيين عامة لهذا القرار وهذه التفرقة بين المسلمين).[2]

إننا نشهد اليوم تراجعاً كبيراً لهؤلاء اليائسين وانفتاحاً كبيراً من قبل علماء الأمة ومفكريها بل وجماهيرها على التقريب، وربما كان لدعوات الحوار العالمي بين الحضارات.

(*) ورقة قدمت الى الندوة التي عقدت بمناسبة مرور نصف قرن على وفاته في دمشق بتاريخ: ٢٣ - ٢٥ شوال ١٤٢٣ هـ .

(١) من حديث العلامة السيد محمد علي الأمين بمناسبة رثاء المرحوم السيد حسن الأمين.

(٢) اعيان الشيعة، م ١٠ ص ٣٧٠.

وبالأولى بين المسلمين. وللهجمة الشرسة لأعداء الأمة تحت عناوين الارهاب والعولمة وحقوق الانسان وغيرها الأثر المهم في هذا المجال.

وقبل كل شيء يجب ان نوضح إن الدعوة للتقريب والوحدة لا تعني مطلقاً العمل على تذويب المذاهب، كيف وكلها تراث اجتهادي رائع يمثل ثراء للفكر الإسلامي، وإعمالاً للعقل المسلم عبر القرون لعنصر الاجتهاد في نصوص الشريعة الغراء، وبالتالي يشكل مساحة واسعة تستفيد منها الأمة لحل مشاكلها الحضارية باستمرار.

إن التقريب - في رأينا - يعني:

١- التمسك بالمبادئ والأصول الإسلامية المسلم بها، والتعاون في المساحات المشتركة بين المذاهب.

٢- السعي الحثيث لكشف هذه الميادين المتفق عليها، وتوسيعها.

٣- رجوع كل فرد الى منهبه الخاص في الأمور التي تختلف فيها المذاهب - وما اقلها - ويعذر الواحد منا الآخر فيما نختلف فيه من اجتهادات.

٤- تنمية الآداب والأخلاق التقريبية من قبيل: التآلف، وحسن الظن، والرقي بمستوى التفاهم، والإحساس بالأخوة والتكافل.

وهنا يقول المرحوم العلامة الأمين - وهو يشرح هدفه من دعوته التقريبية -: (ليس مقصودنا من هذه المقالة ان نجعل اهل السنة شيعةً او العكس، او ان يتبرا كل من الطرفين من آرائه ومعتقداته). ويضيف: (قد يساء فهم المقصود من فكرة التقارب، فيقال: إنها تدعو الى ترك البحث حول احقية هذا المذهب او ذاك، وذلك لأننا لا نستطيع ان نحافظ على الأخوة إلا بترك هذا النمط من البحوث، الا أن هذا غفلة عن ان هذه الدعوة لا تُقبل مادام كل طرف ملتزماً بمذهبه، ويراه هو الحق ولا يمكن أن يتخلى عن اعتقاده من دون دليل او برهان. إن الذي يجب أن يدعى اليه الطرفان: التعاون، وتحري

الأدلة العلمية، والتمسك بالآداب الإسلامية، وتجنب التصرفات غير اللائقة الباعثة على التنفر).[١]

هكذا إذن لا يعني التقريب اغلاق باب البحث (الكلامي) ولا باب البحث (التاريخي) بل ولا يطلب من احد أن يتنازل عن ايمانه بان مذهبه هو الحق او الأحق بالاتباع، وإنما المطلوب التركيز على عملية التعاون في المساحات المشتركة وتوسيعها، وان يعذر البعض الآخر في موارد الاختلاف في الراي.

اما تلك العقبات التي تصورها اليائسون فهي امور يمكن تجاوزها بسهولة إذا تصورناها على واقعها، وإذا تعاملنا معها بروح الحوار القرآني، وإذا ادركنا ما يترتب على هذا التعامل من آثار ايجابية كبرى.

فعلى الصعيد العقائدي لا نجد اختلافاً على الأصول مطلقاً، فالتوحيد والنبوة والمعاد والقرآن والسنة النبوية الشريفة وعظمة الصحابة (رض) وحب اهل البيت (ع) والكعبة والايمان بأصول الشريعة واركانها شيء لا يختلف عليه اثنان، وإن كانوا قد يختلفون في التفاصيل بما لا يخدش مطلقاً اي جانب من الأصول المذكورة.

ولا يعني الاختلاف احياناً في التفاصيل اختلافاً في التعامل مطلقاً، وما اكثر اختلاف الصحابة في الآراء، وكذلك اختلاف الأئمة في استنباط الحقيقة من نصوص الشريعة، دون أن يؤدي ذلك الى تنافر في السلوك.

وهنا أتذكر ان بعض الاتباع تصوروا خطأ إن عملية التبري تشمل لتباع الاتجاهات الاخرى ومن لا يقولون بقولهم، وليسوا بمستوى علمهم، فواجههم ائمة اهل البيت(ع) برفض هذا المنحى وتصحيح هذا التصور المنحرف.

ففي الرواية: (انه جرى ذكر قوم ـ قال الراوي: ـ فقلت له ـ يعني الإمام الصادق(ع) ـ: إنا لنبرأ منهم، انهم لا يقولون ما نقول. قال: فقال: يتولونا ولا يقولون ما تقولون، تبراون

---

(١) من مقالة له نشرت بشكل مستقل تحت عنوان (حق اليقين).

منهم؟ - الى ان قال: فهو ذا عندنا ما ليس عندكم، فينبغي لنا ان نبرأ منكم! - الى ان قال: فتولوهم ولا تبرأوا منهم...).[١]

إن التبري إنما يكون من اعداء الله والإسلام والأمة، ولا مجال له بين ابنائها، وهو ما يصححه المرحوم الأمين في بعض كلماته.[٢]

والحالة التي ننبه على لزوم اجتنابها هنا هي مسالة المؤاخذة باللوازم.

فقد يتصور هذا الطرف - مثلاً: ان القول بنوع من التجسيم يستلزم الشرك، او ان القول بالتحسين والتقبيح الشرعيين لا العقليين يستلزم اغلاق باب النبوة او التصديق بها، وقد يتصور الطرف الآخر أن القول بالشفاعة، والتوسل، وزيارة القبور يستلزم الشرك، وهكذا دواليك. ويبدا مسلسل نسبة الكفر والفسق والبدعة الى هذا الطرف او ذاك.

والحقيقة هي إن اي طرف لا يقبل هذه اللوازم المطروحة في ذهن الطرف الآخر بل له توجيهاته ومخارجه التي يستند فيها الى ادلة شرعية وعقلية معتبرة عنده. وحينها لامعنى لأحكام التكفير والتفسيق مطلقاً.

إنها إذن حالة يجب اجتنابها شرعاً وعقلاً، وإلا بقينا ندور في حلقة مفرغة.

وفي المجال التاريخي لا نجد هناك اية عقبة كؤود امام التآخي والتآلف. ولناخذ اشد المواضيع حساسية وهي مسألة الخلافة بعد الرسول (ص). فهناك نظريتان، تركز احداهما على انه (ص) اوصى وعيّن الخليفة بعده، وترفض الثانية ذلك. وهذه قضية تاريخية لها مجالها البحثي، ولا مانع من ذلك في جو اخوي صميم. فإن تم الاتفاق وإلا عذر كل منهما الآخر. وهنا يقول المرحوم العلامة الأمين: (لم نزل نتنازع على شرعية الخليفة حتى صار المندوب السامي هو خليفتنا).

وقد اكد الإمام البروجردي سابقاً على عدم نقل الخلاف الى الصعيد غير العلمي،

---

(١) وسائل الشيعة، باب ١٤ من ابواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ج١٦ ص ١٦٠، من طبعة دار آل البيت (ع).

(٢) راجع مقال (حق اليقين) للعلامة الامين.

وتجاوز هذه المسألة الى مسالة اخرى هي اكبر اهمية منها، وهي مسألة (المرجعية العلمية لأهل البيت ـ ع ـ) حيث تؤكدها النصوص، وقد لا يختلف فيها المسلمون، ولذا اختص علي(ع) بلقب الإمام في ذهننا التاريخي جميعاً.[1]

وهنا نذكر بأن الإمام علياً ـ وخلافاً لما يتصوره البعض ـ لم ينزو عن الحياة ربع قرن من عهد الخلافة الراشدة ـ كما يقال ـ بل عاش في قلبها وخاض خضمها، وحل الكثير من مشاكلها، حتى نقل المؤرخون أن الخليفة الثاني كرر عشرات المرات عبارة: (ما كنت لمعضلة ليس لها ابو الحسن).

وإذا انتقلنا الى تاريخ أئمة المذاهب وتعاملهم رأينا العجب العجاب من التسامح والمداراة والتعاون والاحترام الكبير.

فمن المعروف إن كتب أهل السنة حافلة بروايات أهل البيت (ع) حتى إن بعض العلماء[2] ذكر انه جمع اكثر من عشرة آلاف حديث بهذه الصفة. وهو يؤكد أن الكثير من تلامذة الإمام الصادق كانوا من علماء السنة، وبينهم الكثير من أسر الصحابة والخلفاء، وعدد من المتكلمين المشهورين والمؤرخين من أصحاب السيرة.

والعلاقات بين الإمام الصادق والإمام أبي حنيفة معروفة، وكذلك مع الإمام مالك الذي نقل كيفية حج رسول الله (ص) عنه، وشعر الإمام الشافعي في أهل البيت مشهور، وقد ذكر الإمام احمد بن حنبل الحديث المعروف بسلسلة الذهب المروي عن الإمام الرضا(ع) عن آبائه باسمائهم وذلك حين مرّ بنيسابور وهو: (كلمة لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني امن من عذابي) واردف قائلاً: (بشروطها)، نقل الحديث الإمام احمد ثم علق عليه بقوله: (لو قرأت هذا الإسناد على مجنون لبرئ من جنته).[3]

---

(١) راجع بحث (المرجعية العلمية لأهل البيت ـ ع ـ).

(٢) وهو اية الله محمد واعظ زاده ـ الأمين العام السابق للمجمع العالمي للتقريب ـ في كتابه (دراسات وبحوث ج١ ص ٤١٥ ـ ٤٢٣).

(٣) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ٢٠٣.

إننا اليوم نرجو ـ بكل حسرة ـ أن يعود حالنا في التعاون كحال أئمتنا.

ولا ننسى هنا أن نذكر بأن المذهبية ـ كما أكدنا ـ كانت خيراً كبيراً ما دامت تعبر عن غنىً علمي، ولكن العوامل الكثيرة كالجهل، والتعصب المقيت، وعدم التأدب بآداب الإسلام في الحوار، وأهواء الحكام الطغاة، وغير ذلك حولت المذهبية الى طائفية متعنتة، وتصادمية عمياء، سالت على اثرها الدماء والدموع.

يقول احد الكتاب المعاصرين: (ولم تكن السلطات الحاكمة بعيدة عن إثارة الصراع وتأجيجه، ممّا يتوافق وسعيها للتحصين بالاصطفاف وتمتين اواصرها بين السكان المحليين.. ولم تقتصر على السنة والشيعة فحسب. إذ تكررت الحوادث بين الحنابلة وكل من الأشاعرة والحنفية والشافعية والمالكية). ويضيف: (وفي تزاحم تلك الصراعات سلطت حرب الارهاب الفكري على المبدعين، ومن نماذجها ما حدث عندما توفي محمد بن جرير الطبري عام ٣١٠ هـ، فقد دفن بداره ليلاً لأن العامة منعت من دفنه نهاراً).[١]

اما مسألة العادات والسنن الشعبية التي يقوم بها هؤلاء وهؤلاء فهي مسألة فيها نظر، لأنه ليس من السهل تغيير هذه العادات ولا يقف في قبالها إلا الأبطال، ومنهم شخصيتنا التي نحتفل بذكراها، إذ حارب الخرافات والمبتدعات وطهر المراسم الحسينية من الأعمال السخيفة، ولاقى نتيجة ذلك الأمرّين حتى من بعض العلماء.

وعندما نتجاوز البحوث العقائدية والتاريخية الى الميدان التشريعي فإن التلاقي سوف يبدو كأروع ما يكون، فلا يوجد خلاف في الراي بين المسلمين في الساحة الأخلاقية مطلقاً، كما لا يوجد خلاف في مجالات المعاملات إلا نادراً، وهكذا الأمر في المجالات العبادية إذا تجاوزنا بعض الجزئيات.

وأما العلاقات المدنية فهي متطابقة إلا في بعض القواعد الفقهية، وبالتالي يمكننا ان

---

(١) قصة الطوائف للدكتور فاضل الأنصاري، ص ٢٣٥.

نصدق بقوة ما قاله علماء محققون من إن الشيعة والسنة متفقان في أكثر من ٩٠٪ من المساحة التشريعية.[1]

اتجاهان تقريبيان

والحقيقة ان طرح فكرة الوحدة غالبا ما يتم ضمن سياق التوصيات الاجتماعية بها، وفي قالب الدعوة إلى التوعية وتجنب مخاطر التفرقة. لكنه يلاحظ ان هذا الاتجاه التقريبي- وإن تمكّن بسبب امتلاكه المفردات الحيّة الغنيّة من إعطاء صورة توضيحية تعرّف مقولة التقريب، وتثبت ضرورته في المجتمع، وحاجة الناس إليه - غير انه يفتقد - في واقعنا المعاش - الضمانات التي تتكفّل بحضوره ودوامه الفاعل في اوساط المجتمع، سيما بين الصفوة من أبناء المذاهب المختلفة. ولحل هذه الاشكالية ينبغي أن نطرح فكرة الوحدة في ميدان الفقه.

فعندما ننظر إلى فكرة التقريب لدى الفقهاء نجد انها تحركت في اتجاهين مهمين وهما: اتجاه الفقه التقريبي، واتجاه التقريب الفقهي. وهذان المشروعان يشتركان في النظر إلى الصلة القائمة بين الفقه والتقريب، غير أن التقريب الفقهي يعالج قضية التقريب من زاوية النظر إلى موقعها في منظومة الفقه، او فلنعبّر رأي الفقه في التقريب، بينما الفقه التقريبي يعالجها من زاوية النظر إلى موقعها في منظومة التقريب، أو فلنعبر بالفقه المقارن بهدف التقريب.

وبما ان العلامة آية الله السيد محسن الامين من ابرز اصحاب الاتجاه الثاني، فلابد من توضيح كل اتجاه، وما يختصّ به من سمات:

---

(١) ومن هؤلاء الاستاذ المفكر الراحل محمد المبارك، والأستاذ الدكتور الزحيلي، والأستاذ حسين محفوظ وغيرهم.

اتجاه الفقه التقريبي

زخر التاريخ المذهبي بجملة آراء متطرفة صدرت كنتيجة للتقليد والتعصب المذهبيين، فصارت سببا لصعود الكثير من البحوث الهامشية في الفقه إلى موقع الصدارة، وساهمت إلى حد كبير في تكوين الذهنية الطائفية الفقهية، ثم اتخذت مظهرا من مظاهر الهوية المذهبية. وفي ظل هذه الأخطاء المتكررة في الفقه تحولت الاختلافات الجزئية والهامشية الموجودة بين المذاهب المختلفة إلى خطوط حمراء ساخنة، لايمكن تجاوزها وغض النظر عنها.

وطبيعي في مثل هذا الجوّ ان الذي يمكنه أن يقابل الفقه المذهبي ويكون عونا للمنظور الفقهي لشتى المذاهب هو الفقه التقريبي، فهذا السنخ من الفقه لا ينحصر داخل الحدود المذهبية بل يسعى إلى ابراز المجالات المشتركة والحيوية بين المذاهب، وسيما ابراز تلك البحوث المهمة والمصيرية التي تحظى بموقع خاص في الفقه لا يملؤه بديل أو نظير.

فالمواقف التقريبية التي يتخذها اصحاب هذا الاتجاه قبل أن تكون ناشئة من إدراك ضرورة فقهية معيّنة للتحليل الموضوعي، تحصل على مسرح الواقع على أساس إدراك لضرورة التقريب لا غير.

وبعبارة اخرى، ان هذه الفئة ترى أن التقريب بين المذاهب عبارة عن محاولة أساسية واجتماعية لابد منها ضمن مجالاتها المتاحة لها، ومن بين هذه المجالات يبرز المجال الفقهي بوضوح اكثر.

اتجاه التقريب الفقهي

وهذا الاتجاه يبحث من زاوية فقهية، تعنى بالمشاكل التي يواجهها المصلحون التقريبيون في سبيل تحقيق واقع تقريبي. ولو آمنا بأنّ قسما من المشاكل التي تواجهنا في طريق تحقيق الوحدة تعود أساساً إلى ابهامات لا يوجد لها حل الا في المجال الفقهي لأمكننا

ان نحصل على صورة أوضح لمقدار موفقية ونجاح هذا الاتجاه بالقياس إلى الاتجاه الأول.

وبذلك ندرك ان اصحاب هذا الاتجاه جعلوا نقطة ابتداء وانطلاق الحركة التقريبية واساسها هو النظر إلى الملابسات الموضوعية والابهامات الفقهية التي قد تواجهها هذه الحركة. ثم درسوا سبل الوصول إلى رفع القناع عن تلك الملابسات الفقهية.

فمن هذه النقطة والنظرة ينشأ الدافع لدى هذه الفئة من أصحاب فكرة التقريب نحو قبولها، وتذليل العقبات التي تحول دون تحقيقها. وبعبارة اخرى فان الدافع لهم نحو التقريب ينبعث من حاق الفقه ولبّه، ويشكل نتيجة للرؤية الفقهية المتولدة لديهم، مما يعزز دور أبحاث اصحاب هذه الفكرة، باعتبار ان الابحاث الناشئة من مثل هذا الدافع تكون ذات نفع كبير في تحقيق فكرة التقريب التي راودت - وماتزال - اذهان أصحابها منذ زمن ليس بالقريب.

وبما انّ نتائج هذه الأبحاث والدراسات تأخذ كيانها من بوتقة التجارب الفقهية، وانّ المادة الخام لهذه الفكرة هي فقهية بحتة في الواقع، فانّ هذه الفكرة تستطيع بدورها النفوذ إلى أوساط مجتمع المتدينين بصورة ذاتية وطبيعية، دون الحاجة إلى محاورات جانبية معينة قد تشوبها بعض الملابسات، وكذلك فانها تصبح جزءا لا يتجزّأ من المعايشة الفقهية في ذهن المكلّفين.

والذي يفرض علينا تبنّي هذا الاتجاه جملة نقاط:

اولاً: اذا لم يتم التعامل مع الوحدة ضمن اطار موضوعي فقهي، فعلينا ان ننتظر جوا يعود فيه العمل الاجتماعي مفعما بمظاهر الفقه الرسمي التقليدي المذهبي، ومعه لا يفسح المجال للالتزام العملي بالوحدة كما هو واضح.

ثانيا: ان التعصبات المذهبية قد اشعلت - في بعض الأحيان - لهيب نيرانها إلى حد سبب ظهور العداء والعناد بين المذاهب. ولاشك ان خطورة النتائج السلبية لمثل هذا العداء والعناد تزداد فيما لو لبسا لباس الفقه، واصبحا بسبب ذلك جزءا من الهوية الفقهية،

كان ترى كل طائفة ان التبّري من اصحاب المذهب الآخر وظيفة فقهية محتمة عليها.

ثالثاً: إذا نظرنا إلى الفقه كمجموعة منظمة وهادفة، فانه يجب علينا ابتداء أن نعين ماهو الدور الذي يمكن أن تلعبه الوحدة في هذه المجموعة المتشابكة، واي نوع من الاحكام علينا ان نتركها جانبا بسبب التزامنا بمبدأ الوحدة المقدم عليها.

ولا بأس في الإشارة إلى بعض سمات هذا الاتجاه، وتطبيقها على الحركة التقريبية للسيد العلامة الأمين:

الف. إنّ اصحاب هذه النظرة الفقهية إلى التقريب لا ينادون بتوحيد المذاهب بحيث يذوب بعضها في البعض الآخر، بل يسعون إلى تبيين مكانة التقريب في منظومة الفقه الاجتماعي، ويصوغونها بقالب فقهي واضح، ويرفعون تلك الملابسات والابهامات الفقهية المتوجهة إلى فكرة التقريب بالأجوبة الشافية والكافية، والالتزام بلوازمه في المجتمع المسلم. يقول السيد الأمين:

(ليس مقصودنا من هذه المقالة أن نجعل اهل السنة شيعة أو العكس، وأن يتبرّأ كل من الطرفين من آرائه ومعتقداته).

وبعبارة اخرى: يحاول هؤلاء استنباط حكم التقريب وتنقيح موضوعه، فهم بدل أن يتدخّلوا في بعض المسائل الجزئية بين هذا المذهب وذاك، يسعون إلى تنقيح المباني الكلامية للتقريب، وإعداد الأدلة الفقهية اللازمة لها.

ب. انّ مجرّد تبيين الحكم الفقهي للوحدة، وطرحه في منظومة الافكار الفقهية، لا يعني رفع الغموض الذي يكتنف الناحية الفقهية المتعلّقة بهذا الموضوع الاجتماعي الحساس، وانما ينبغي - علاوة على السعي في هذا الطريق - البحثُ في النسبة بين الأدلة الفقهية للوحدة وأدلة سائر الاحكام الفقهية، وتتبع حركة البحوث والتحقيقات التي يقوم بها العلماء والفقهاء، وفي ظلّ مطالعةٍ من هذا القبيل يمكننا تشخيص الموارد والظروف التي نعتبر فيها ان الوحدة حاكمة على الأحكام الاخرى بشكل اساسي.

ولعل من اهمّ المسائل التي تواجه اصحاب هذا الاتجاه التقريبي هي كيفية وضع الحلول العلمية لبعض المشكلات التي تعترض الطريق الواصل بين ادلة الوحدة وادلة سائر الأحكام الفردية او الاجتماعية الأخرى.

ونجد مثل هذا الاهتمام في كلمات العلامة الأمين، حيث يتعرض إلى مسالة التولي والتبرّي من منظور فقهي، ويحاول معالجة صلة قضية التقريب بهذه المسألة، فيقول:

(يقول البعض: انّ هذا الامر يتنافى مع ما في الدين من امر واجب وهو التولي والتبرّي وإنكار المنكَر بالقلب واليد واللسان، لأنّ المقصود منهما ان يصدرا من العبد بنيّة خالصة لله تعالى.. ولذا فانّ من قام بعمل قبيح علينا أن نشعره بعدم الارتياح من ذلك، وان نسعى لمنعه منه، ولا يجوز لنا إلحاق الأذى به خارج إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعامل معه بخشونة، وانما علينا ان نتعامل معه برافة، وننهاه عن المنكر ونأمره بالمعروف باللين والنصيحة)[1].

ج ـ الاكثار من رفع شعار الوحدة: عندما يصل الفقيه من خلال استنباطه الى وجوب الوحدة فسوف يكون له في شعار الوحدة طعم خاص ومتميز. فالوحدة من الشعارات المحببة والخطيرة. محببة لأنه يوجد شعورا عاماً باهمية قضية الوحدة، إذ ان المسلمين قاطبة يشعرون أن نقطة الضعف في مواقفهم إنما هو التشتت والفرقة المستشرية فيهم. وكونه خطيرا فلأنّ الفكر ـ أيّ فكر ـ لو كان تجريدياً محضاً، لا يعنى بواقع الناس ولا يعيش همومهم ينزوي لا محالة ولو بعد حين، بعكس ما لو كان يؤثر في حياة الناس ويتفاعل معهم، فإنه سيشكل منعطفاً تاريخياً فيخلد.

فقضية الوحدة الاسلامية قضية مهمة وخطيرة حيثما يوجد واقع يشغله مسلمون، ويكفي أن يلقي المرء نظرة على خارطة العالم، ومقدار ما يشغله المسلمون منها من مواقع استراتيجية، ليدرك جيدا اهمية موقفهم الحضاري.

---

(١) راجع مقال: حق اليقين.

د ـ السعي لرفض الخرافات: إن أصحاب النظرة الفقهية الى التقريب يدركون قبل الآخرين ما تتركه الخرافات من آثار سلبية في المجتمع، ومن هذا المنطلق فقد تصدى لها العلامة المرحوم السيد الأمين بشجاعة كبيرة رغم العقبات التي واجهها، وما خلفته من متاعب جمّة، وليس هذا بجديد على الفقيه والباحث والمصلح والمحقق، حيث اكتسح الخرافات ورمى بها عرض الحائط، وأسس مكانها مواقع عمل مشتركة جعلت تملأ الفراغات الحاصلة جرّاء قمع الخرافات والأساطير التي كانت قد عشعشت في اذهان الكثير من الناس.

كتبت جريدة (العصر الجديد) ضمن مقال في مقام إطراء منزلته، والثناء على شخصيته:

(لقد حمل البسطاء من الجعفريين ان يتركوا الخرافات التي جاءت من الخارج وادخلت على مذاهب السنة ومذاهب الشيعة مجتمعة) (اعيان الشيعة ٤٣٣/١٠).

ويمكن القول بأن الاتجاهين يتكاملان في خدمة قضية التقريب.

التقريب ومنهجه الاجتهادي

ليس كل منهج بسيط في الاجتهاد متمكناً من العمل في ميدان هذا الاتجاه العظيم الفقهي، فالاجتهاد في هذا المجال إنما هو بالعمل على استيحاء روح الاسلام من خلال مفاهيمه العامة، ولا موجب للوقوف على دقائق نصوصه للبحث عن ادلة الوحدة، ومثل هذا الاتجاه يرى في حركة الفقه المعاصر امتدادا لحركة الانبياء والأئمة (ع) الشاملة لكل شؤون الحياة الانسانية، العامة والخاصة، والتي تركّز على اهتمام الشارع بكلّ حوادث الحياة البشرية، والعمل علىتصحيح مسارها الخاطئ.

فيرى هذا الاتجاه ضرورة تقنين الحركة التقريبية وفق الشريعة السمحاء، وايجاد السبل الصالحة لتطوير وسائل انتشاره، وبيان وجهة نظر الشارع المقدّس في مقرراته

واهدافه وبرنامج اعماله، ووضع الحلول والاجوبة لكافة المسائل والمشكلات التي تواجه الواقع الوحدوي.

إننا نعتقد بضرورة تحرك الاجتهاد في هذا الطريق، لمواجهة الحالات المستحدثة والوقائع الكثيرة التي يزخر بها الواقع، على أساس شريعة الله تعالى النازلة على لسان نبيّنا محمد (ص) وما تسالم عليه المسلمون من ادلة واحكام واستدلالات شرعية وعقلية بما يوافق الكتاب والسنة المطهّرة الصحيحة. دون الخضوع للضغوط المختلفة، وتجاوز العراقيل النفسية والاجتماعية، والتي تعمل على تكريس الآراء السابقة، وعدم الاصغاء الى البعض الذي ذهب بعيدا عن واقع التقريب.

إنّ حركة الاجتهاد الفقهي المطلوب اتخاذها لمعالجة مشكلة (تقنين) التقريب على أساس الشريعة الغرّاء، يجب أن تنهض بالمستوى المطلوب، وذلك من خلال مواجهة الحاجات المطروحة في الساحة بحلول عميقة ومناسبة في هذا العصر، لكي يشعر الإنسان المسلم بوجود أجوبة لكل تساؤلاته العملية من هذه الناحية، قد هيّأها فقهاء اعلام معروفون بالورع والنزاهة، فتطمئن لها نفسه، وتبرأ ذمته من كل إبهام او إشكال قد ينقدح بذهنه، فلا يحسّ بالحرج وهو يرافق أخاه المسلم - على غير مذهبه - في بعض الامتثالات، كان يكون في الصلاة او الصيام او الجهاد او الحج او الزكاة ...

ويمكن مشاهدة هذا المنهج في حركة العلامة الأمين الفقهية، إذ يقول:

(... فإن شريعتنا سهلة سمحة تدعو الى العدل والاحسان وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والتجاوز على حقوق الآخرين ولا يعتبر هذا الأمر خاصاً بمجموعة او فرقة من الناس فقد أمرت الشريعة الجميع بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحتى بالنسبة الى أهل الذمّة والمعاهدين مع المسلمين)[1].

ولا يخفى إن من أهم العناصر الفاعلة في هذا المنهج الاستفادة من المباني الكلامية،

---

(١) حق اليقين ص ٧.

فإن طرح المباني الكلامية شيء مهم في تتبع المسائل ودراستها وخصوصاً إذا كانت الدراسة مقارنة وكلما كانت مسائلنا الكلامية منقحة تحسنت استنباطاتنا وازدادت وارتقت افكارنا الاصولية. وانطلاقاً من هذا الأمر يحاول الفقهاء التقريبيون تنقيح المباني الكلامية للتقريب، وإعداد الأدلة الفقهية اللازمة لها في ضوء تلك المباني.

فهذا الاتجاه الفقهي في التقريب ينبغي أن ينطوي على كافة الأحكام التي تمسّ الإنسان المسلم في اي مكان من أطراف الأرض المعمورة، وتجيب على المسائل التي هي محلّ ابتلائه، وترفع عنه حرجه، وتيسّر له الأمور.

لذا فإنه ينبغي أن يشتمل مشروع التقنين التقريبي على:

١ ـ الأجوبة الشافية لجميع تساؤلات الانسان المسلم.

٢ـ النظرة الشاملة لجميع أطراف الواقع الوحدوي، والتي تضع في حسابها عنصرين أساسيين: الإنسان المسلم والمجتمع الاسلامي.

٣ـ مباحث فقهية تعنى بشؤون المسائل التقريبية والواقع الوحدوي المنشود، وتقديم خلاصة الدراسات على هذا الصعيد، وصياغتها بصورة احكام فقهية مستقلة.. على أن تشمل ما يلي:

أ ـ الأدب الفقهي الخاصّ بالتقريب، واللغة الفقهية ـ التقريبية ـ الموجهة.

ب ـ الاستدلالات الفقهية المشتركة.

ج ـ بيان أدلة الوحدة فقهياً ـ من الكتاب والسنة الصحيحة ـ وبراهينها النقلية والعقلية.

د ـ الشواهد التاريخية من الأخبار والآثار.

هـ ـ آراء علماء السلف واقوالهم في هذا الجانب.

و ـ بيان فلسفة الوحدة واخلاقيات التقريب.

ز ـ تصوير تحديات الوحدة الاسلامية وسبل معالجتها على مستوى الأمة.

ح ـ تعزيز المباحث بالاقتراحات القيمة على هذا الصعيد، وتوجيه سبل تطبيقها.

لقد كان المرحوم الأمين فقيهاً واعياً لواقع المسلمين، مدركاً لأضرار التشتت الذي أصاب الأمة ومازالت اضراره وآثاره السيئة يعاني منها الملايين من مسلمي هذا الزمان، فلذلك دعا الى التحصن بثقافة متينة مطبوعة بطابع وحدوي، لا تشوبها اية خرافات، ولا ما يثير حفيظة طوائف المسلمين، تستند على دعائم علمية قوية، تستشف شرعيتها من جملة قواسم مشتركة بين جميع المسلمين ولا غرو في ذلك، فقد انجب الاسلام فحولاً كانوا بمثابة منارات تنير درب التقريب الوعر، واعمدة تقام عليها خيمة الوحدة الاسلامية، انطلقوا ببُعد نظرهم ورجحان عقولهم باتجاه التصدّي لتحقيق الواقع الوحدوي الذي تنشده اجيال المسلمين.

كتب المرحوم الأمين:

(إن المسلمين ـ مع وجود قدر من الخطأ والاشتباه في اعتقادهم ـ لا يخطئون في الأصول).

واخيرا فإننا نرفع يد الضراعة للباري جلّ وعلا كي يتغمد الفقيد العلأمة السيد محسن الأمين برحمته وينزل عليه شابيب لطفه.. كما نسأله تعالى ان يمطر روح نجله الراحل قريباً السيد حسن الأمين بالرحمة والمغفرة، فقد سار على منهج ابيه واحيا سيرته وقدم للمكتبة الإسلامية فكرا نيرا بكل مثابرة قد يقل نظيرها.

ثانيا:

آية الله السيد محمد تقي الحكيم

قدوة فكرية في مجال التقريب(*)

المقدمة

لقد كانت لحظات تتلمذي على آية الله السيد محمد تقي الحكيم من امتع ايام حياتي العلمية، حيث توسمت في سماحته الاستاذ الوقور، والعالم الكفء، والقدوة المطمئنة في الرد والاقناع، والمثابرة الدؤوب في التحقيق، والوعي الاجتماعي الفريد.

واستطيع ان اؤكد انه كان يشكل الى جانب اخوته من العلماء ـ كالمرحوم العالم المظفر، والمرحوم الشهيد العظيم الصدر ـ احد اعمدة النهضة العلمية والاجتماعية للحوزة العلمية الرائدة في النجف الاشرف.

ولحسن الحظ فقد وفقت للاستماع والاستفادة منه من خلال بحوثه في كلية الفقه، كما وفقني الله تعالى للحضور في بحثه الاكاديمي (الخارج) وكان من امتع البحوث واعمقها. والذي اود التركيز عليه هنا هو جانب التعادل العلمي الذي امتاز به، واعني به (تحقيق التوازن بين الأصالة الاصولية والفقهية والعقيدية لمدرسة اهل البيت (ع) وبين الانفتاح العلمي على مختلف المدارس الاسلامية الاخرى ومحاولة الاستفادة منها والتقريب بين وجهات النظر المطروحة لدى المدرستين الشيعية والسنية) الامر الذي يستمد واقعه من واقع استفادة كلتا المدرستين من معين واحد هو (القرآن الكريم والسنة النبوية

(*) قدم الى الندوة المنعقدة في لندن لتكريمه، قبل أن يتوفاه الله الى جواره في شهر صفر من عام ١٤٢٣ هـ .. وكان رحمه الله العميد الأسبق لكلية الفقه بالنجف الأشرف، وعضوا في المجمع العلمي العراقي.

الشريفة) بل واعتمادهما معاً على فكر اهل البيت (ع) ورواياتهم في كثير من المجالات. وحسبنا ان نعرف ان الفقه الاسلامي بمجموعه يعتمد على عمل الامام علي(ع) ـ مثلاً ـ في مسألة البغي والبغاة، وكذلك فان كل الفقه الاسلامي في كيفية الحج يقوم على روايات اهل البيت (ع)، ويكفينا ان نتذكر ان أئمة المذاهب الاربعة قد تتلمذوا إما مباشرة او بشكل غير مباشر على يد الامام الصادق (ع).

وسيكون تركيزي على الجانب الفكري الاصولي ومن خلال كتاب السيد الاستاذ في اصول الفقه المقارن فقط، والا فهناك مجالات كثيرة للبحث لا اجد مجالاً للتعرض لها.

والكتاب المذكور في مجمله محاولة تقريبية فكرية يقل نظيرها بل يكاد ينعدم، وكم كنا نود لو اقتفى العلماء الآخرون اثرها وراحوا يتوسعون فيها، الامر الذي لم يحدث بعد.

لكننا سوف نقتبس نماذج من بحوثه لنتبين ما ذكرناه من التوازن بين الاصالة والانفتاح ونعرف آثاره التقريبية من خلال هذه النماذج.

أولاً: الافصاح عن الهدف

في مطلع البحوث يفصح عن هدفه من هذه البحوث حينما يذكر فوائد الفقه المقارن وتتلخص في الامور التالية:

أ ـ محاولة البلوغ الى واقع الفقه الاسلامي.

ب ـ العمل على تطوير الدراسات الفقهية والاصولية.

ج ـ اشاعة الروح الرياضية بين الباحثين ومحاولة القضاء على مختلف النزعات العاطفية.

د ـ تقريب شقة الخلاف بين المسلمين والحد من تأثير العوامل للفرقة التي كان من اهمها واقواها جهل علماء بعض المذاهب بأسس وركائز البعض الآخر مما ترك المجال

مفتوحا امام تسرب الدعوات المغرضة في تشويه مفاهيم بعضهم والتقول عليهم بما لا يؤمنون به.[1]

وهكذا نلاحظ روحاً تقريبية عالية هدفها الانفتاح على مختلف الآراء، والمنطقية في العرض، والعلمية في البحث والاستدلال، والسعي لتضييق الخلاف بين المسلمين ويتجلى هذا المعنى ايضا حين يتحدث عن اصول المقارنة فيركز على الروح الموضوعية (ونقصد منها هنا ان يكون المقارن مهيئاً من وجهة نفسية للتحلل من تاثير رواسبه والخضوع لما تدعو اليه الحجة عند المقارنة سواء وافق ما تدعو اليه ما يملكه من مسبقات ام خالفها) ويضيف (فاذا كان بهذا المستوى من القدرة على التحكم بعواطفه... كان اهلاً لأن يخوض الحديث)[2].

ثانيا: دراسة اسباب الخلاف

وهي الاصل الثاني من اصول المقارنة، فبعد ان ارجع ابن رشد في مقدمة كتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد)[3] الخلاف الى الصغريات اي الى الاختلاف في تنقيح الصغريات لحجية الظهور (اعني ظهور الكتاب والسنة) او لحجية القياس يؤكد السيد الحكيم ان الخلاف في الكبريات اكبر اثرا من الخلاف في الصغريات، ويقصد به الخلاف في اصول الفقه، ليكشف عن هدفه العام في الكتاب وهو: تضييق شقة هذا الخلاف تحقيقاً لما ذكره من قبل في التقريب بين المذاهب الفقهية.

واذا كان لنا ان نضيف شيئاً هنا قلنا ان هناك منشأ آخر لاختلاف نتائج البحوث الفقهية، وهو الاختلاف في ترتيب الادلة وكيفية الرجوع اليها، إذ يجد الباحث في بطون الكتب الفقهية الاختلاف الكثير بين الفقهاء فيها مع ان الواقع يقتضي الترتيب بينها. وهذه

---

(١) اصول الفقه المقارن ص١٤.

(٢) ن، م ص ١٦.

(٣) بداية المجتهد ص ٥ـ٦ ج١.

النقطة بالضبط درسها السيد الحكيم في موضوع آخر بعد الحديث عن مصطلحي (الورود والحكومة) وهما مصطلحان يختص بهما الفقه الامامي دون غيره وعلى ضوئهما يتم ترتيب الادلة على النحو التالي:

أ ـ ادلة الطرق والامارات (ادلة الواقع).

ب ـ ادلة الواقع التنزيلي كالاستصحاب.

ج ـ ادلة الوظيفة الشرعية.

د ـ ادلة الوظيفة العقلية[1]

ومتى ضمنا وحدة الترتيب في الرجوع الى الادلة ضمناً التقارب الكبير في النتائج.

ثالثاً: موضوع التحريف

وشبهة التحريف في القرآن الكريم تعد من اكبر الشبهات التي تثار لا في وجه حجية الظواهر القرآنية فحسب بل تستعمل كأداة ضخمة لضرب المذهب الامامي بزعم انه يقول بها، وكتب الهمز واللمز هذه تزخر بتوجيه الاتهام والكلام المطول ضده.

ومن هنا نجد السيد الحكيم (رحمه الله) يولي اكبر الاهتمام لهذه الشبهة ويعالجها أروع علاج، فيبحث أولاً عن منشئها في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث وما ورد في اصول الكافي من روايات، مؤكدا على ان المنشأ انما هو في كتب الفريقين معاً، ومعقباً على ما قاله الشيخ ابو زهرة من ان ماجاء في الكافي هو وثيقة تكفير المرحوم الكليني، مؤكدا إن اسلوب التكفير اسلوب مرفوض خصوصاً إذا كان من قبل العلماء، موضحاً ان مجرد التشكيك في هذا الموضوع لا يعد تشكيكاً في ضرورة من ضروريات الدين حتى يؤدي الى الكفر، على أن مجرد رواية احاديث النقص وعدم التعقيب عليها لا يدل على الوثوق بصدورها، بل لعل رواية الكليني لها في النوادر دليل على انكارها بعد ما جاء في الرواية المرفوعة عنهم: من قوله (عليه السلام): (ودع الشاذ النادر).

---

(١) اصول الفقه المقارن ٩١/٩٢.

على أن الكليني نفسه روى الروايات العلاجية والتي تأمر بعرض الروايات على كتاب الله (عز وجل) (فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فردوه)[١] وروايات النقص لا تنسجم مطلقاً مع الآية الشريفة (إننا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).[٢]

وهكذا يستمر في رد الشبهة منافحاً ومدافعاً بقوة ليقول:

(فرواية هذه الأحاديث في الشواذ النوادر من كتابه، وتعارضها في مروياته ولزوم طرحها بالنسبة الى منهجه الذي رسمه، وعدم التلازم بين الايمان بالصدور ـ لو آمن بصدورها ـ وبين الإيمان بمضمونها، كل ذلك مما يوجب القطع بطرحه لهذه الأخبار وإيمانه بعدم التحريف).[٣]

وبعد أن يكمل دفاعه عن المرحوم الكليني ـ وهو من اجلة العلماء والغيارى على الدين ـ يعود الى نفس الشبهة ليؤكد أنها واردة على كتب الصحاح والمسانيد ومستدرك الحاكم وكنز العمال وأمثالها، وان رفع هذه الشبهة بمسالة نسخ التلاوة لا يجدي نفعاً بل إن بعض المرويات لا ينسجم حتى مع نسخ التلاوة.

وهنا يؤكد الأستاذ الحكيم ان نقل الروايات هي من طبيعة اي عمل موسوعي وان على المجتهدين بعد ذلك ان يفحصوا ويمحصوا.

ثم يركز على نفس الشبهة معتبراً اياها شبهة في مقابل البديهة، وان اخبار التحريف ـ مع تضارب مفاهيمها ـ لا تزيد على كونها اخبار آحاد، وهي لا تنهض على الوقوف امام التواتر الموجب للقطع بأن هذا القرآن الذي بايدينا هو القرآن الذي نزل على النبي (ص) دون ان يزاد او ينقص فيه، وهكذا يمضي في الاستدلال القوي القويم لينقل بعد ذلك اقوال العلماء كالشيخ الطوسي (رحمه الله) والسيد المرتضى مما يؤكد انها شبهة لا غير.

وهكذا نجده (رحمه الله) يبذل قصارى جهده وعلمه ليرفع عائقاً كبيراً امام وحدة المسلمين وتقارب آرائهم وتحقيق التقارب بينها.

---

(١) اصول الكافي هامش مرآة العقول ج١ ص ٦.

(٢) الحجر: ٩.

(٣) اصول الفقه المقارن، ص ٢٦١.

رابعاً: سنة أهل البيت (عليهم السلام)

وهذا الموضوع ايضاً يتصوره الكثيرون العائق الأكبر امام تقارب المسلمين باعتباره يعني ايجاد منبع آخر للشريعة في مقابل السنة النبوية، وحينئذ فمن الطبيعي ان يؤدي اختلاف المنابع الى اختلاف النتائج.

إلا أن السيد الحكيم بمقتضى طول باعه يثبت العكس، ويؤكد أن الايمان بسنة أهل البيت (عليهم السلام) يعني تحكيم السنة النبوية وتجليتها في المسيرة مما يقلب الاستنتاج الآنف راساً على عقب.

فقبل كل شيء يشير الى الحوار الذي تم بين المرحوم السيد شرف الدين والمرحوم الشيخ البشري ـ شيخ الأزهر الشريف ـ حيث تم دفع الدور المتصور والقائل بأن كلام الأئمة لا يشكل حجة على غيرهم إلا إذا ثبتت حجيته وانه من السنة، وكونه من السنة اول الكلام، وقد دفع هذه الشبهة بأن ثبوت كونهم من الرواة الموثوقين يرفع شبهة الدور.

ثم راح يستدل على عصمتهم وحجية اقوالهم من الكتاب كما جاء في اية التطهير، ومن السنة كما جاء في حديث الثقلين، ويدفع كل الشبهات المطروحة في البين باقوى الحجج والبراهين بما لا مزيد عليه احياناً.

وينتهي الى ان حجية سنة أهل البيت (عليهم السلام) إنما هو في الواقع تحكيم للسنة النبوية وتطبيق لأوامرها خصوصاً وان السنة النبوية نفسها لم تجمع على عصره (ص) وفيها الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، ثم إن المشكلة تتعقد بعده (ص) عند تكثر الفتوح وانتشار الوضع.

يقول (رحمه الله): (وما دمنا نعلم أن السنة لم تدون على عهد الرسول(ص) وان النبي (ص) منزه عن التفريط برسالته، فلابد ان نفترض جعل مرجع تحدد لديه السنة

بكل خصائصها، وبهذا تتضح اهمية حديث الثقلين وقيمة ارجاع الأمة الى أهل البيت (ع) فيه لأخذ الأحكام عنهم، كما تتضح اسرار تأكيده على الاقتداء بهم وجعلهم (سفن النجاة) تارة و(اماناً للامة) اخرى و(باب حطة) ثالثة وهكذا.[١]

ومما ينبغي ذكره هنا ـ لتأكيد ما ذكره السيد الحكيم ـ هو أن الرجوع الى سنة اهل البيت (ع) هو في الواقع رجوع الى سنة رسول الله (ص) لأنهم تلامذة الرسول والمحكمون لشرعته، وحديثهم حديثه ونقلهم عنه (ص)، وحينئذ يعود هذا الفارق الموهوم جسراً للتفاهم والرجوع الى الواقع والتقارب بين المسلمين.

ولا أدل على ذلك من سعة المساحة المشتركة بين الفقه الإمامي والفقه السني حتى تصل الى أكثر من ٩٠ بالمائة من الفقه بمجموعه، بل ان الروايات المشتركة بين الفريقين تشكل اروع صورة للتقارب بين المضامين بحيث تعود الروايات المختلفة قليلة الحجم وضعيفة الأثر خصوصاً على الصعيد الفقهي، ولهذا مجال مطول من الحديث.

خامساً: حول الاصول المختلف فيها

ومن موارد الاختلاف الكبرى، الاختلاف حول القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وامثالها، وقد تعرض لها السيد الاستاذ بكل حكمة وموضوعية ودرسها بكل عمق، واستطاع من خلال دراسته أن يثبت حقيقتين كبيرتين:

الأولى: اصالة الموقف الإمامي.

الثانية: ان الهوة بين الموقفين ليست بهذا البعد الذي يتصوره البعض، بل قد تضيق هذه الهوة الى الحد الذي يعود الاختلاف فيها لفظياً ولو على مستوى بعض الاتجاهات.

وهذا ما سنلاحظه فيما يلي:

---

(١) اصول الفقه المقارن، ١٧٤.

أ. القياس

وقد انتهى الى ان تعريفه هو (مساواة فرع لأصله في علة حكمه الشرعي) وقد اكد ان هذا التعريف ليس محل الاعتراض المعروف على القياس، وانما ينصب الاعتراض على تعريف آخر تم هجره. وهو (التماس العلل الواقعية للاحكام الشرعية من طريق العقل).

وقد اكد على انهم اضافوا شروطاً في تعريف العلة كأن تكون وصفاً ظاهراً ومنضبطاً ومناسباً، وان لا يكون الوصف قاصراً على الأصل، وبهذه الشروط قد تضيق شقة الخلاف.

ومن هنا فهو لا يصدر حكمه السريع على القياس، وانما يؤكد على أن الحديث (حول حجية القياس متشعب جداً بتشعب اقوالهم وتباينها، وطبيعة البحث تدعونا الى ان نقف منها موقفاً لا يخلو من صبر واناة).[1]

وهو يؤكد على ان المنع عن العمل انما ينصب على قسم من اقسام القياس لا غير، فإن المسالك لمعرفة العلة ان كانت مقطوعة او قام على اعتبارها دليل قطعي فلا شك في الحجية، أما إذا كانت المسالك غير مقطوعة فهي التي يخالفها الشيعة ولم تثبت الادلة المطروحة عليها للنقد، وقد ناقشها دليلاً دليلاً لينتهي الى ان جميع ما ذكره مثبتو القياس من الأدلة لا تنهض باثبات الحجية له، فنبقى نحن والشك في حجيته، والشك في الحجية كاف للقطع بعدمها.

ب. الاستحسان

والبحث هنا يكاد يكون من امتع البحوث التقريبية، إذ يثبت فيه الاستاذ أن الخلاف فيه يكاد ينعدم، فبعد استعراض تعاريفه يصل الى انها ترجع الى اصول اربعة هي:

الاول: ان الاستحسان هو العمل باقوى الدليلين ولا خلاف فيه بين المذاهب.

---

(١) اصول الفقه المقارن، ص ٣٢٠.

الثاني: ان الاستحسان هو العمل بما يقتضيه العرف، وحينئذ يكون من صغريات مسالة العرف، وهو لا يكون حجة إلا إذا امتد الى عصر المعصوم، واقر من قبله، وحينئذ يكون من تطبيقات كبرى حجية السنة.

الثالث: الاستحسان الذي يرجع الى الاستصلاح وياخذ حينئذ حكمه.

الرابع: الاستحسان كحالة نفسية لبعض المجتهدين، وحجيته مقصورة على من يدعون القطع ولا يشكل قاعدة محددة واصلاً كسائر الأصول وقد ناقش الأدلة المذكورة لحجية هذا القسم الرابع وابطلها جميعاً.

ج. المصالح المرسلة

وقد اختلف في حجيتها، فذهب مالك واحمد الى ان الاستصلاح طريق شرعي لاستنباط الحكم فيما لا نص فيه ولا اجماع، وغالى فيه الطوفي فاعتبره دليلاً اساسياً في السياسات الدنيوية والمعاملات وقدمه على ما يعارضه من النصوص عند تعذر الجمع، بينما ذهب الشافعي الى أن من استصلح فقد شرع كمن استحسن والاستصلاح كالاستحسان متابعة للهوى.[1]

وبعد استعراض الأقوال والأدلة يخلص الاستاذ الى نتيجة مهمة هي:

(ان تعاريف المصالح المرسلة مختلفة، بعضها ينص على استفادة المصلحة من النصوص والقواعد العامة ... ومقتضى هذا النوع من التعاريف الحاقها بالسنة ... وأما على تعاريفها الاخر فينحصر ادراكها بالعقل، والذي ينبغي أن يقال عنها انها تختلف من حيث الحجية باختلاف ذلك الادراك ... وبهذا يتضح ان الشيعة لا يقولون بالمصالح المرسلة إلا ما رجع منها الى العقل على سبيل الجزم).[2]

---

(١) مصادر التشريع لخلاف، ص ٨١.

(٢) اصول الفقه المقارن، ص ٤٠٤.

وهكذا نجد ـ على هذا المستوى من البحث ـ ان التلاقي بين الفريقين يتم في هذه المرحلة ايضاً وان كان الاختلاف يتحقق احياناً في تشخيص المصاديق.

والذي أود أن اضيفه هنا هو أن العمل بالمصالح المرسلة امر طبيعي في حدوده الطبيعية، وان الذي تم تطبيقه في الدولة الاسلامية مثال على ذلك، ذلك ان المصالح المنظورة هنا هي المصالح العامة او المصالح التي تعود الى عموم الافراد وهي التي ينظر اليها القائلون بالمصلحة المرسلة، ومع ذلك فإن الأمر يعود الى الحاكم الشرعي الولي الذي اوكلت اليه رعاية مصالح الأمة. والحاكم بدوره عادة ما يشكل مجالس لتشخيص المصالح المذكورة.

والفرق بين هذا وما يبحث عنه في بحث المصالح المرسلة يتلخص في امرين:

الأول: ايكال الأمر الى الولي واهل الخبرة العملية الذين يستشيرهم وعدم الاقتصار على النظرة الفردية لهذا الفقيه او ذاك.

الثاني: ان الاحكام القائمة على المصلحة تبقى مؤقتة بمقدار قيام المصلحة، ولا تشكل فتوى دائمة كما هو الحال لدى الفقهاء ـ عادة ـ.

وقد نص الدستور الاسلامي في ايران على ايجاد مجلس لتشخيص المصلحة يقوم على حل الخلاف بين مجلس الشورى الاسلامي ومجلس صيانة الدستور، كما يقوم ابتداء بتشخيص المصالح العامة وتقديم المشورة للقائد الولي في مجال ادارة شؤون الأمة.

د. فتح الذرائع وسدها

والذريعة هي (الوسيلة المفضية الى الاحكام الخمسة) كما ينتهي اليه الاستاذ، وهذا البحث ليس من مختصات مذهب دون آخر.

فالفقه الامامي يبحث عن مقدمة الواجب ومقدمة الحرام، ورغم الاختلاف في النتائج فإن البحث لا يعد غريباً على اي مذهب اسلامي، ولذا يقول: (والخلاصة ان جل من تعرفنا عليهم من الأصوليين ـ شيعة وسنة ـ باستثناء بعض محققيهم من المتأخرين

هم من القائلين بفتح الذرائع وسدها وان لم يتفقوا في حدود ما يأخذون منها وما يتركون).[١] وإن كان السيد الأستاذ يأخذ عليهم اعتبار ذلك اصلاً في مقابل بقية الأصول مع انها لا تعدو كونها من صغريات السنة او العقل.

هـ. العرف

عندما يتم تشخيص مجالات العرف وهي:

١. ما يستكشف منه حكم شرعي فيما لا نص فيه مثل الاستصناع، بل ما يستكشف منه أصل من اصول الفقه كالاستصحاب،

٢. ما يرجع اليه لتشخيص بعض المفاهيم التي أوكل الشارع للعرف تحديدها كالإسراف،

٣. ما يستكشف منه مراد المتكلمين،

عندما يتم التشخيص يتوضح ان العرف لا يشكل اصلاً من الأصول، لانه يرجع الى السنة اما بالإقرار كما في المجال الأول او بتشخيص المصاديق كما في المجالين الآخرين، وبهذا التوضيح لا يبقى مجال للخلاف المعتد به.

هذه بعض الأمثلة سقناها من ما كتبه السيد الاستاذ الحكيم لنبرز الدور الرائع الذي لعبته بحوثه في مسالة التقريب بين المذاهب، وهناك أمثلة اخرى ـ سواء في هذا الكتاب او في غيره ـ تؤكد هذه الحقيقة.

والواقع: ان فكرة التقريب بين المذاهب وإن كانت قد طرحت مؤخراً كشعار اجتماعي لتحقيق قدر جيد من الوحدة الاسلامية، إلا إنه في الواقع يشكل واجباً شرعياً على كل الفقهاء لتقصي الواقع والوصول الى الحقيقة بروح موضوعية والتخلص من كثير من سوء الفهم، والتهم التي تطلق على عواهنها لتضعيف هذا او ذاك، او حتى لتكفير بعض المسلمين وهو امر خطير.

---

(١) ن. م ص ٤١٥.

ثالثاً:

الخطوط العامة للمنهج الوحدوي
عند العلامة شرف الدين
(في كتابه الفصول المهمة)

لقد كان المرحوم آية الله شرف الدين رجل العلم والحوار والعمل والتحرق لأمته وعقيدته. نذر حياته للجهاد العلمي والعملي، ولاقى الامرين في سبيل ذلك، الا ان الله تعالى جزاه خيرا في هذه الدار بان جعله منار العارفين السالكين الى الله، ومعلم الدعاة اساليب الدعوة الحقة. ورائدا من رواد الوحدة الاسلامية العظام. ونسال الله ـ جل وعلا ـ له الثواب الجزيل في الآخرة.

وقد اتسعت ابعاد شخصيته لمختلف الجوانب، وقد اخترنا منها ـ بحكم عملنا وتوجهنا الاصيل ـ سعيه لتحقيق الوحدة الاسلامية، وهي خاصية هذه الامة وبدونها لاتستطيع ان تعلن نفسها امة جامعة لكل الخصائص التي وصفها بها القرآن الكريم والسنة الشريفة.

وجهود المرحوم العلامة في هذا السبيل متنوعة ايضا مما جعلنا نركز على كتابه القيم (الفصول المهمة في تاليف الامة) بالخصوص، واكتشاف الخطوط العريضة التي سلكها لنستهدي بذلك في مسعانا المبارك ان شاء الله تعالى.

وباستعراضنا لهذا الكتاب والمنهج المتبع فيه تبدو لنا الخطوط التالية:

اولاً: التركيز على اهمية الوحدة الاسلامية في التصور الاسلامي، ومدى اقتضاء الظروف لها، والآثار السلبية للتمزق والتناحر.

ثانياً: السعي لتعيين الخط الرئيس الفاصل للايمان عن الكفر، والنجاة عن الضياع.

ثالثاً: اشاعة الثقة والتآلف بين جماهير المسلمين.

رابعاً: كشف العناصر الممزقة باعتبارها العقبة الكؤود في سبيل تحقق هذه الخاصية القرآنية للامة.

وفيما يلي نستعرض هذه الخطوط بشيء من التفصيل.

الخط الاول: اهمية الوحدة واخطار التمزق

وهو يؤكد على ان النهضة الاسلامية، وتنمية العالم الاسلامي وتقدمه حتى في المجال المدني، وخلاصه من نير العبودية، واقامة نظام العدالة لايتم الا من خلال الوحدة.

وبدونها تعود الامة اذل الامم دارا واجدبها قرارا، نزهةً للطامع، وهدفاً للسهام، وقبسة العجلان، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وحومة بلاء، لاتاوي الى جناح دعوة، ولاتعتصم بظل منعة (المقدمة).

وفي الفصل الاول، يذكر نبذة من ما جاء في الكتاب العزيز والسنة الشريفة من الترغيب في الوحدة والتالف وتحقيق الاخوة الاسلامية والولاية المشتركة والرحمة المتبادلة والاعتصام بحبل الله والبعد عن التخلق باخلاق الامم المتفرقة الغارقة في العذاب الاليم.

ومما تؤكده النصوص الشريفة:

- الايمان رهن بالتحابّ
- الحب للاخ المسلم ما يحب لنفسه
- ذمة المسلمين واحدة
- لزوم نفي كل ما يؤدي للتباعد
- لزوم تعميم الالتزام بحقوق المسلم
- ضرورة التواصل بشتى الاساليب
- التالف من صفات المؤمنين
- اولياء الله هم المتحابون وهم جيران الله في داره

الى غير ذلك مما لامزيد عليه.

* * *

الخط الثاني: تعيين الحد الفاصل بين الايمان والكفر، والنجاة والهلاك وقد ركز عليه في فصول:

الفصل الثاني: حيث اكد اجماع اهل السنة على ان الاسلام، والايمان عبارة عن: الشهادتين، والتصديق بالبعث، والصلوات الخمس الى القبلة، وحج البيت، وصيام رمضان، والزكاة والخمس المفروضين. وايد ذلك بروايات من صحيح البخاري وصحيح مسلم ومصادر الشيعة.

والفصل الثالث: حيث ذكر نبذة من الصحاح الدالة على ان من تشهد الشهادتين حقن ماله وعرضه ودمه، وذلك من صحيح البخاري وصحيح مسلم ومنها الحديث:

ان رجلا قام فقال: يا رسول الله، اتق الله. فقال(ص)، ويلك الست أحق اهل الارض ان يتقي الله؟ فقال خالد: يا رسول الله الا اضرب عنقه؟ قال(ص): لا، لعله ان يكون يصلي.

والفصل الخامس: حيث ركز فيه على نجاة اهل التوحيد ذاكرا نصوصاً من الصحاح تؤكد ذلك، وحاول الاجابة على اشكال تعذيب الموحدين العاصين بانهم يعذبون دون خلود في النار، واشار الى احاديث كثيرة في هذا الباب من الفريقين بل ان بعض الاحاديث تكتفي بالموت عالماً بالتوحيد لدخول الجنة.

والفصل السادس: وركز فيه على فتاوى كثير من العلماء على نجاة من نطق بالشهادتين ومنهم: شيخ الاسلام تقي الدين السبكي، وابن العربي، والفاضل الرشيد، والعارف الشعراني، وابن تيمية، وابن حزم وغيرهم بما يحقق الاجماع، وبهذا يوضح المعيار تماماً.

ملاحظة هامة: يشير المؤلف الى ان الشيعة يضيفون عنصر الولاء لاهل البيت(ع) بمقتضى النصوص الكثيرة لديهم (ص٥٤) و (ص٢٣) ولكن عدم الولاء لايخرج الانسان من دائرة الايمان الا اذا كان بمنطق العناد، فان العناد لله ورسوله هو معيار التكفير. (ص٦٨) اما من لم تقنعه الادلة بالولاء على المستوى الذي يفهمه الشيعة فانه باق في دائرة الايمان وله نفس الحقوق التي قال بها الاسلام للمسلم. وهذا الرأي هو الرأي السائد لدى العلماء،

وما تثبته النصوص عن اهل البيت(ع) بلاريب. اما على مستوى الحب والاحترام فهو من اوضح الواضحات بحيث لاينكره الا معاند.

لذا يهتز المرحوم شرف الدين عندما يواجه كلاما غريبا مجافيا للحق وكاشفا عن العناد من امثال قول ابن خلدون[1] حيث ذكر في مقدمته المشهورة انه (وشذ اهل البيت في مذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح).

وهو يعلق عليه بقوله:

(ولا غرو ان قام المسلم عند سماع هذه الكلمة وقعد بل لاعجب ان مات اسفا على الاسلام واهله. اذ بلغ الامر هذه الغاية) (ص٢٥٥).

* * *

الخط الثالث: اعادة الثقة المتبادلة والتالف بين السنة والشيعة وينتظم في محاور:

المحور الاول: الابتعاد عن لغة التجريح والنقد اللاذع، والاحترام للراي الآخر بشكل لافت للنظر.

فهو اذا ذكر اهل السنة ذكرهم بلفظ (اخواننا) (ص:٢٣) واذا نقل حديثا عن البخاري قال ـ مثلا ـ (قلت: اعظم بهذا الحديث) (ص: ٣٥)، واذا ذكر الصحابة ترضى عنهم واجلهم واذا ذكر ام المؤمنين عائشة قال عنها: (انها انقى جيبا، واطهر ثوبا واعلى نفسا، واغلى غرضا وامنع صونا، وارفع جنابا، واعز خدرا، واسمى مقاما من ان يجوز عليها غير النزاهة او يمكن في حقها الا العفة والصيانة) (ص٢١٠) وغير ذلك من الشواهد.

المحور الثاني: السنة والشيعة والمعايير المذكورة

بعد ان تحدث عن معايير الايمان والنجاة راح يطبقها على السنة والشيعة في فصل

---

(١) ونحن ندخله في زمرة المؤلفين وليس من علماء الدين الذين يعتد برايهم كما ذكر ذلك بعض العلماء.

كامل هو الفصل الرابع الذي عنونه بـ(السنة كالشيعة يجمعهم الاسلام) ويجعل ذلك في (غاية الوضوح في مذهبنا) (ص\٤) ناقلا الروايات عن الامام الصادق(ع) والامام الباقر(ع) حيث في الصحيح عنه قوله: (والاسلام ما ظهر من قول او فعل، وهو الذي عليه جماعة من الناس من الفرق كلها، وبه حقنت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح، واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج، فخرجوا بذلك عن الكفر واضيفوا الى الايمان).

المحور الثالث: بشارات السنة للشيعة

ويزيد في هذا المحور فيتحدث عن انصاف السنة للشيعة وبشاراتهم لهم تأكيدا على عرى المحبة وبعثاً للثقة المتبادلة حيث ينقل بعض الروايات التي اوردها بعض الحفاظ من اهل السنة وهي تؤكد على علي(ع) وشيعته واصفةً اياهم بالراضين والمرضيين والغر المحجلين والشهداء، ويعلق في نهاية الفصل بقوله:

(فعسى ان يعرف الشيعي بعد هذا ان اهل السنة قد انصفوا واعترفوا، وعسى ان يعرف السني ان لا وجه بعد هذه المبشرات لشيء من الضغائن او الهناة. والسلام على من اتبع السنن وجانب الفتن ورحمة الله وبركاته) (ص\٨).

المحور الرابع: فتح باب التاول يمنع الكثير من الاحكام الجارحة

وهذا باب مهم يركز عليه كثيرا ليفسر الكثير من المبهمات في اذهان الطرفين على اساس ان تلك التصرفات انما تعبر عن اجتهادات او تصورات قد تكون صحيحة او خاطئة ولكنها لاتفتح باب الاتهام بالانحراف والكفر والفسق. وهو يؤكد ان فتح هذا الباب يهدف الى اعذار المتاولين (ص٨٥) ويذكر امثلة متنوعة تشمل مايلي:

- سعد بن عبادة ويعد من افضل المسلمين رغم انه تأول وتخلف عن بيعة الخليفتين ابي بكر وعمر وخرج مغاضبا الى الشام.

ـ حباب بن المنذر الانصاري البدري الاحدي ـ وقد تخلف عن البيعة.

ـ كثير من الصحابة ايضا تأولوا وتخلفوا عنها.

ـ خالد بن الوليد حينما قتل مالك بن نويرة وطالب عمر بمجازاته. فقال عنه الخليفة ابوبكر: تاول فاخطأ.

وعلق المرحوم شرف الدين هنا قائلا:

(وليس شعري متى كان التاول في الفروع نكرا، ام كيف لايكون عند الله عذرا؟ وقد تأول السلف كثيرا من ظواهر الادلة) (ص ٩٥).

ثم ذكر بعض الامثلة كطلاق الثلاث، ومتعة الحج، ومتعة النساء، واذان الصبح، وإسقاط (حي على خير العمل)، وصلاة التراويح، واسقاط سهم المؤلفة قلوبهم، وآية الخمس، وحديث الغدير، وغير ذلك. وقد اطال في هذا الموضوع وربما نسي اصل ما دعاه لطرحه ودخل في مناقشات تاريخية وعقائدية ابعدته عن اصل مشروعه وكانه اراد ان يقول ان بعض هذه التأولات مما لايصح ولايسمح به المنطق والشرع، وكانه لاحظ ذلك واكد انه لو اراد ان يفيض في الامر ويستوفي حق الموضوع لخرج عن خطة الكتاب(ص١٦٨). وعاد ليؤكد على معذرة المتاولين، ونجاتهم يوم الدين وليتابع التمثيل بما جرى ايام الخليفة الثالث عثمان من تأولات كثيرة منه ومن مخالفيه ايضاً، ومع ذلك بقي الجميع على العدالة، وهكذا ما جرى من البعض ايام خلافة الامامعلي(ع)، ويستمر مفيضا في كثيرا من المخالفات التي حملت على التاول خصوصا في عهد معاوية. وكاني به يريد ان يقول في النهاية ـ وان لم يصرح بذلك في هذا الفصل لكنه اشار اليه في مواضع اخرى (ص٢٠٨ مثلا) ـ اننا يجب ان نتعامل مع الآخرين من المسلمين بنفس المنطق ونعذرهم اذا ما قاموا باي عمل نراه واضح الخطا. فلعلهم تاولوا واجتهدوا واخطاوا وبالتالي نبقي باب الرحمة مفتوحا على مصراعيه، ولاندخل في عمليات تكفير وتفسيق

وتبديع. وربما اراد ان يقول هنا ان السب الذي يبدو من البعض القليل من المسلمين رغم انه مرفوض لكنه لايؤدي الى الكفر الصريح، والى فتاوى تستبيح الدماء والاعراض والاموال.

وقد اشار في موضع آخر الى الموضوع مذكرا ان الشيعة يتبراون من ذلك (اي السب) (ص٢١٢) واردف ذلك بتاكيده على انه حتى لو كان فانه لايؤدي الى الكفر، مؤكدا ذلك بالدليل القاطع من العقل والنقل واقوال الفقهاء الكثيرين في هذه المسألة.

المحور الخامس: توضيح الامر ودفع الشبه المثارة لدى كل طرف ضد الآخر

ومن الشبه المثارة التي ردها بالتفصيل:

١ـ ما ذكرناه من مسألة السب.

٢ـ مسألة المتعة (ص٩٩)، وقد افاض في بيان اصل مشروعيتها اجماعاً في بدء امرها، ثم جاء الاختلاف في دوام حلها واستمرار اباحتها، وناقش دعوى النسخ واكد ان التحريم جاء في عهد الخليفة الثاني عمر، وان بعض الصحابة كعبد الله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن مسعود وغيرهم لم يقبلوا ذلك.

٣ـ مسألة الموقف من السيدة عائشة والصحابة، فاكد احترام الشيعة للسيدة عائشة ام المؤمنين وايمانهم بطهارتها، وان اختلفوا معها في بعض تصرفاتها كخروجها على ولي الامر الشرعي. وكذلك الامر بالنسبة للصحابة الكرام مع المناقشة وعدم قبول بعض تصرفاتهم وذكر الامر بالتفصيل في (ص٢٦٣).

حيث اكد ان (الكاملية) ـ وهي فرقة مغالية ـ تتحامل على الصحابة، اما الامامية فهم من جهة يقتدون ـ حتى في تشيعهم ـ بكبار الصحابة، وذكر منهم الكثيرين ورتبهم حسب الحروف الابجدية، ومن جهة اخرى فهم يتولون الآخرين الذين اختاروا مسيرا معيناً لمصلحة راوها، واختلفوا مع آخرين لانهم لم يرتضوا ما صدر عنهم. ونقل هنا من

الصحاح بعض الروايات التي تذكر ان البعض منهم احدثوا بعده(ص).

٤. بعض الاقوال المغالية، وقد رد عليها بان هناك الكثير من الفرق المغالية تنتسب الى التشيع كالاغاخانية والكيسانية والناووسية والخطابية والفطحية والواقفية، فربما وجدت اقوال من هؤلاء ثم نسبت الى الامامية(ص٢٢٥).

٥. بعض المنقولات التاريخية عن الشيعة وهم منها براء من قبيل:

- تجويز نكاح تسع نسوة!
- تحريم الكرنب!
- تحريم لحوم الابل!
- عدم ايجاب العدة على النساء.

وغير ذلك، فينبغي الا ننسب الى مذهب اقوالا الا اذا استقيت من الكتب الاصيلة له.

* * *

الخط الرابع: التركيز على العناصر المزقة ومناقشتها، ويتجلى ذلك في قيامه بالبحث عن اسباب الفرقة والتباعد بهدف تشخيص الداء لوصف الدواء الناجع كما يعبر (ص٢٤٩) ويراها كما يلي:

أ. الامور التي ينفر منها الشيعي واهمها امران:

الاول: ما يسمعه من تكفير وتحقير وتزوير.

الثاني: اعراض الاخوة . كما يعبر . من اهل السنة عن مذهب اهل البيت وعدم الاحتجاج بحديثهم رغم الاحتجاج بدعاة الخوارج والمرجئة والمشبهة والقدرية، وذكر هنا عدم رواية البخاري عن ائمة اهل البيت(ع)، وعبارة ابن خلدون المار ذكرها.

وهنا دعا جميع المسلمين ان يدخلوا مدينة العلم النبوي من بابها بعد ان اسفر الصبح عن توثق الروابط بين الطائفتين والحمد لله رب العالمين(ص٢٦١).

اما ما ينفر السنة من الشيعة فقد اشار الى انه ذكر بعضها في ثنايا الكتاب واكد على عدم صحتها.

ب- وركز على فتاوى التكفير الصادرة من البعض كالشيخ نوح الحنفي وغيره وناقش الادلة التي سيقت تبريرا لها دليلا دليلا، واعترض على خصوص تعبير الشيخ الحنفي عن الشيعة بانهم كفرة بغاة فجرة، وان من توقف في كفرهم والحادهم ووجوب قتالهم وجواز قتلهم فهو كافر مثلهم!! وحكم بوجوب قتلهم تابوا او لم يتوبوا واسترقاق نسائهم وذراريهم(ص١٩٦).

والحقيقة هي ان كل منصف عاقل يستسخف هذه الفتاوى. واطنب السيد في مناقشة حججه وادلته.

ج- ثم تحدث عن دور الكذابين المفرقين من بعض الكتاب حيث نسبوا للشيعة امورا كثيرة يبراون منها. وذلك اما ارضاء للسلطات الحاكمة (ص٢٢٣) على مر التاريخ، او ابعادا للامة عن سماع اقوالهم وتنفيرها منهم، او لالتباس الامر على هؤلاء الكتاب لرؤيتهم اقوالا لغلاة ينتسبون للشيعة فنسبوها للتشيع، والتشيع الامامي نفسه يتبرا من الغلاة- وهذا ما اشرنا اليه سابقاً- .

وختاماً نقول:

اننا حاولنا ان ننقل بامانة ما ذكره العلامة شرف الدين، وربما جمعنا اطراف بعض الافكار لبيان تجلي هذه الخطوط في هذا الكتاب القيم، ولم نتعرض لافكاره في كتبه القيمة الاخرى لان ذلك يتطلب جهدا اكبر ووقتاً اوسع لم نكن نمتلكه.

والامر الذي لاغبار عليه انه (رحمه الله) كان يتشوق من جهة الى وحدة هذه الامة، وانفتاح بعضها على البعض الآخر، كما كان من جهة اخرى ملتزماً بمذهبه تمام الالتزام منافحا مدافعاً مثبتا له بقوة.

ونحن اذ ندعو للوحدة الاسلامية لانرمي الى ان يتنازل اي فرد او مذهب عن آرائه التي توصل اليها بقناعة واستدلال، لمجرد ارضاء الطرف الآخر. نعم يمكن تاجيل بعض الخلافات النظرية او عدم التركيز على بعضها الآخر، لانها قد لاتترك كبير اثر على الواقع القائم. وهذا ما اشار اليه في جوابه على الاتهام الموجه للشيعة بانهم يرفضون خلافة الشيخين فقال بانه لايمكن انكار واقع تاريخي (ولاينكر استخلاف الشيخين (رضي الله عنهما) ذو شعور، ولايرتاب فيه ذو وجدان، وقد امتدت امارتهما من سنة ١١ الى سنة٢٣ وفتحت بها الفتوحات، وضرب الدين بجرانه. على ان خلافتهما من الشؤون السياسية التي خرجت بانقضائها وتصرمها عن محل الابتلاء، فاي وجه لتنافر المسلمين اليوم بسببها واي ثمرة عملية تترتب فعلا على الاعتقاد بها. فهلموا يا قومنا للنظر في سياستنا الحاضرة... واي وجه لتكفير المسلمين بانكار سياسة خالية وخلافة ماضية؟ وقد اجمع اهل القبلة على انها ليست من اصول الدين، وتصافقوا على انها ليست مما بني الاسلام عليه) (ص٢٠٧).

وهي دعوة طرحها الامام البروجردي (قدس سره) وبعض العلماء الآخرين كالمرحوم شمس الدين في ميثاقه الوحدوي. [١]

وعلى اي حال فباب البحث الاكاديمي العلمي مفتوح في المجال العقائدي وكذلك في مجال التقويم التاريخي شريطة اتباع منهج الحوار القرآني. ولكن هذا لايعني ان ننقل هذا الى نزاع عملي نهينا عنه بشدة، وان يتحامل بعضنا على البعض الآخر وان نمزق صفنا الواحد، خصوصاً بعد ان تجمع علينا الاعداء من كل جانب، ووحدوا خططهم. رغم اختلافاتهم فيما بينهم. ولنعتبر بقوله تعالى: (والذين كفروا بعضهم اولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير).(٢)

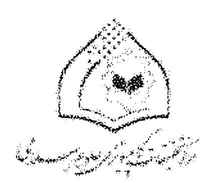
---

(١) مجلة رسالة التقريب عدد ٣٢ ص ١٧٧.

(٢) الانفال: ٧٣.

الفصل الرابع

آراء
و
تعقيبات



آراء و تعقيبات

آثرت في هذا الفصل ان اختار بعض النماذج المرتبطة بهذا الموضوع. وقد كتبت باقلام كتاب معروفين. واعلق عليها بتعقيبات مختصرة كنت قد نشرتها في اعداد متنوعة من مجلة رسالة التقريب.

النموذج الاول:

بين السنة والشيعة..

هل تنجح الفتنة الطائفية؟

أ.د. رجب البنا

رئيس تحرير مجلة اكتوبر المصرية

الاستعمار هو الاستعمار

في كل زمان وفي كل مكان يسعى الى تطبيق مبدا (فرق تسد) .

وقد حاول الاستعمار البريطاني أن يطبق هذا المبدا في مصر بإثارة الفتنة بين المسلمين والأقباط وفشل.. وما زال يحاول ويفشل، لأن وحدة شعب مصر اقوى من المؤامرة.

وحاول في العراق إثارة الفتنة بين الشيعة والسنة وفشل، وما زال يحاول ويفشل، لأن شعب العراق الحر يرفض الاحتلال، كما يرفض الانشغال بالخلافات الطائفية، ويترك

الاحتلال ليوطد قواعده ويستقر آمناً لعشرات السنين، ويتساقط العراقيون ضحايا في الحرب الأهلية.

والاحتلال الأجنبي لم يفهم-ولن يفهم- أن الاختلافات بين المذاهب موجودة منذ مئات السنين.. بين طوائف السُنة وبين طوائف الشيعة. وهذه الاختلافات تدور داخل اتفاق يجمع المسلمين جميعا على أركان ومبادئ لا يختلف احد عليها. فالإسلام مظلة تنطوي تحتها الفرق والمذاهب الإسلامية.

وبعض الكتاب - مع الأسف - يستغلون جهل كثير من المسلمين بحقيقة الاختلاف والاتفاق بين السُنة والشيعة، فيعملون على زيادة الفجوة بين الطائفتين، ويرددون أفكار وكتابات غلاة الشيعة من جانب والمتشددين القدامى والمحدثين على الجانب الآخر لغرس بذور الفتنة.. وعلى امتداد التاريخ هناك كتابات مدسوسة، وكتابات مسمومة، وكتابات نابعة من سوء الفهم أو سوء القصد أو المصالح الشخصية أو الدوافع السياسية.

وكان من حسن حظي أن تعرفت في السبعينات على واحد من ائمة الشيعة هو الإمام محمد القمي، وهو ايراني، يجيد اللغة العربية وعاش في مصر سنوات طويلة، وكان المؤسس لجماعة التقريب بين المذاهب، ومقرها في الزمالك في القاهرة، وعندما استقر في ايران كان يزور القاهرة كل سنة لقضاء عدة أسابيع يلتقي فيها بشيخ الأزهر ووزير الأوقاف، ويدلي بأحاديث صحفية عن ضرورة تقريب الفجوة المصطنعة بين السُنة والشيعة. ولأني كنت قريبا من وزير الأوقاف في ذلك الوقت (الدكتور عبد العزيز كامل يرحمه الله) وكان استاذا كبيرا ومفكرا عظيما، ووطنيا مخلصا شديد الإخلاص لدينه ووطنه، فقد عرفني على الإمام القمي، واجريت معه عدة احاديث صحفية للأهرام، كما حضرت لقاءاته مع شيوخ الأزهر ووزراء الأوقاف المتعاقبين بعد ذلك، وكان من بينهم الإمام الشيخ متولي الشعراوي حين كان وزيرا للأوقاف والشيخ عبد العزيز عيسى حين كان ايضا وزيرا للأوقاف.

وكان لجماعة التقريب بين المذاهب نشاط ملحوظ في مصر وإيران، وقد أسس الإمام القمي فرعا لها في طهران جذب عددا من القيادات الدينية الشيعية هناك.

كان الامام القمي يؤمن بدعوته وبانه يقوم بمهمة مقدسة تلبية لدعوة إلهية، وانه يساهم بها في حركة الإصلاح الإسلامي، وكان يردد دائما الآية الكريمة: (إنما المؤمنون إخوة، فاصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله، لعلكم ترحمون) .[1] ويقول في تفسيرها: إن الجملة الأولى تقرر حقيقة هي أن المؤمنين إخوة، ويجب أن يكونوا كذلك دائما ما داموا مؤمنين، وهذا أمر ربهم، فإن لم يفعلوا فإنهم يخالفون بذلك امر الله ويخرجون على طاعته. وليس لمسلم أن يكون له هدف يخالف هذا الهدف، او ان يأتي بفكرة أو عمل يخرج بها عن مقتضيات هذه الأخوّة لأي سبب من الأسباب.. والجملة الثانية من الآية تأمر بإصلاح ذات البين، اي أن يبعد المسلمون انفسهم عن كل ما يمكن أن يفسد علاقة الأخوة التي قررها وقدرها الله بينهم، وفي ذلك تحذير الرسول (ص): (إن فساد ذات البين هي الحالقة).. والجملة الثالثة من الآية تأمر بأن يكون الإصلاح بين المسلمين في ظل تقوى الله، فتحذر بذلك من اتباع الأهواء، أو تغليب المصالح والمكاسب الدنيوية الزائلة، أو التمسك بالخطأ وادعاء من يسعى بالخلاف بين الإخوة بأنه على الصواب، وانه لا يريد إلا الإصلاح بينما هو يريد الإيقاع بين المؤمنين وتفريق صفوفهم وإثارة النزاعات فيما بينهم.. أما الجملة الرابعة فإن الله يوجه فيها الى الثمرة التي يفوز بها من اتبع أوامره السابقة، والثمرة هي رحمة ربنا (لعلكم ترحمون) والرحمة هي اعظم جائزة في الدنيا وفي الآخرة (كلكم هالك إلا من رحمته).

أما دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فقد تاسست سنة ١٩٥١ ، وكان سكرتيرها العام ثم رئيسها هو الإمام محمد القمي، وقد كتب عنه الشيخ محمد المدني أستاذ الشريعة الكبير انه رجل عاش للتقريب، وإنه كان أول من دعا الى هذه الفكرة وهاجر

---

(١) الحجرات: ١٠.

وجاهد في سبيلها، واشترك معه، وعاونه عدد من كبار ائمة السُنة والشيعة.

يقول الإمام القمي: إنه عندما بدأ نشاطه في الدعوة الى التقريب بين السُنة والشيعة وجد هجوما من الذين يريدون اثارة العداء والبغضاء بين المسلمين، ووجهوا إليه اغرب التهم.. قال بعضهم إن دار التقريب من صنع الاستعمار البريطاني (!) وقال بعضهم الآخر إنها من صنع الاتحاد السوفيتي لتكون منفذا لنشر الشيوعية (!) وقال آخرون إنها من صنع المخابرات الأمريكية (!) بل قال البعض: إن هذه الدعوة في عهد الملك فاروق كانت لنشر مذهب الطائفة الإسماعيلية وهدفها إعادة الحكم الفاطمي الى مصر(!).. ويقول: كانت (الموضة) السائدة في ذلك الوقت الإساءة في تفسير اي عمل باتهامه بأن الاستعمار الإنجليزي وراءه، ويقول ردا على هذه التهمة: إن الإنجليز يعملون على التفرقة بين أبناء الدين الواحد وأبناء الوطن الواحد، ولو انهم فكروا حقيقة في العمل على التقريب بين المسلمين فكيف نرفض نحن هذه الدعوة؟

وخرجت فكرة التقريب من محيط العلماء الى محيط أوسع هو المجتمع العام، وتحدثت عنها الإذاعات، والصحف، والمجلات..

يقول الإمام القمي: كان الإقدام على العمل للتقريب مجازفة خطيرة، وكانت امامنا اسئلة كثيرة: هل يقدر المسلمون على ان يعالجوا مشاكلهم بانفسهم؟.. وهل هناك مبادئ في صميم الإسلام تضمن للأمة الإسلامية وحدتها؟.. وهل يفهم المسلمون ان التقريب معناه نبذ كل خلاف او انهم لا يرون باسا من وجود خلاف- لا يفسد الوحدة- قائم على دليل، ونابع من ذات الأصول التي يجمع عليها المسلمون والتي لا يحق لمسلم ان يختلف عليها؟.. وهل تتحكم المصلحة ويسيطر التعصب او ينتصر العقل وتسود الحكمة وسعة الأفق؟.. واخيرا.. هل يريد المسلمون أن يعيشوا معا أو يقبلون ان يتركوا امرهم لأعدائهم؟.. وهل يدرك المسلمون ان اعداءهم يعرفون كيف ينتهزون الفرصة، ويستفيدون بموقف المتزمتين والداعين الى جمود الفكر والفعل؟.

وكانت تجربة التقريب بين السُنّة والشيعة هي التجربة الأولى من نوعها في هذا المجال، وكانت اختبارا لقدرة المسلمين على معالجة امورهم، وحصار خلافاتهم بالوعي والرشد، ويكونون بذلك اهلا لحمل رسالة الإسلام.

ويقول: كنت اخشى ان تفشل الفكرة، وينتصر انصار التفرقة وتوسيع الفجوة، فيلقي ذلك ظلا من التشكيك في مبادئ الإسلام ذاته، فنظلم الإسلام، ونعطي للمغرضين الفرصة للحكم على الإسلام بتصرفاتنا واخطائنا، وشتان بين الإسلام وواقع المسلمين.

ويقول: كان الوضع يثير الشجن.. الشيعي والسني كل منهما يبتعد عن الآخر، ويعيش على أوهام ولدتها الظنون أو الشائعات أو السياسة ومصالح الحكام، أو روجت لها الدعاية المغرضة، وساعد على بقائها الجهل وقلة الرغبة في الاطلاع على الحقائق عند الفريقين، وكانت الكتب المشحونة بالطعن والتجريح تتداول بين ابناء كل فريق، وتلقى القبول، خصوصا كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني الذي يتحدث عن طوائف وعقائد لا وجود لها على سطح الأرض، ويبدو كانه يتكلم عن خلق آخرين في كواكب أخرى غير هذه الأرض! وإذا ألف واحد من أبناء الفريقين كتابا، لا يعرض إلا آراء مذهبه، وإذا أشار الى مذاهب أخرى تكون إشارته طعنا واتهاما، وترديدا لما سمعه او قراه أو ورثه عن آبائه يردده دون تحقق أو تمحيص، وبذلك ساهم مؤلفون في تضخيم الخلافات بين السُنّة والشيعة، حتى اصبحت كل دعوة لوحدة المسلمين تقابل بالشكوك والاتهامات، وكل ما يدعو الى الفرقة يجد القبول.. ووصل الأمر الى التشكيك في أن مصحف الشيعة هل هو مصحف السُنّة؟ وشك كثير من اهل السُنّة في أن يكون مصحف الشيعة هو المصحف الذي في أيدي سائر المسلمين، ومع ذلك فلم يكلف احدهم نفسه بالتقليب في نسخة من ملايين النسخ من المصحف التي يتداولها الشيعة ويتعبدون بها، ولو قراوها لذهب الشك وانتهت المشكلة، ولكنهم حكموا على شيء موجود بالظنون وتناقل اقوال في كتاب مغرض مات صاحبه منذ قرون ولم يحقق احد مدى الصدق والكذب فيه!

يقول الإمام القمي: ظلت الفرقة بين المسلمين، لأنها كانت تناسب الحكام على مدى قرون، وكان الحكام يستغلونها لتثبيت سلطانهم، ثم جاءت السياسات الأجنبية، وجاء المستشرقون ليكملوا المهمة بدس السموم التي انخدع بها البسطاء، فكان بعضهم يحكم على البعض الآخر، بما كتبه هذا المستشرق أو ذاك.

هكذا وقع المسلمون في فخاخ المستشرقين من ناحية، والمؤرخين الدساسين ومروجي الأوهام من ناحية اخرى، وانخدع كثيرون بما في بعض الكتب القديمة من أكاذيب وسيطرت عليهم هيبة القديم والمألوف، فحرموا أنفسهم من واجب التفكير فيما ردده هؤلاء وهؤلاء.. وفقدوا الحق في أن يكون لهم تفكير مستقل يقرأ ويرى ويحكم بما يلمسه في الواقع وليس بما قاله الآخرون.

يقول الإمام القمي: ليس لمسلم أن يبتكر اسما لله لم يرد عن الله، أو أن يبتدع عبادة لم يشرعها الله، أما البحث والتفكير، فقد فتح الله أمام المسلم أبوابهما ودعاه الى التفكير والنظر، وعدم الحكم على الأمور بالظن أو بالسماع.. ودعانا ربنا الى نبذ التعصب الطائفي، وعلينا أن نتذكر أن الذين حكموا باسم الخلافة الإسلامية قرونا طويلة كانوا يرون ان آل علي رضي الله عنه هم المعارضون لهم، فكانوا يسيئون الى شيعة علي، ويستخدمون الأقلام والألسنة ضدهم، حتى أوجدوا حول الشيعة كثيرا من الخلط والتشويش.. وكان من الممكن لأي مصلح أن يمنع شر التفرق، ولكن القوة التي كانت بيد الخلفاء، والقوة التي كانت لبعض الحكام الأجانب بعد ذلك.. حالت دون التقريب..

يقول الإمام القمي: نعم كانت هناك أحداث صورت على غير حقيقتها فزادت من الفرقة.. وعلى سبيل المثال حدث ان ذهب شاب لأداء فريضة الحج، وكان قد قطع مراحل من سفره سيرا على قدميه، وعندما وصل الى البيت الحرام غلبه القيء فتلقاه في ملابس الإحرام حرصا على طهارة البيت، ولكن حظه السيئ جعل أحد الطائفين يخيل إليهم أنه يحمل ما يحمل يريد به تلويث البيت فصاح في الناس، فهاجوا وتجمعوا عليه،

وشهدوا عليه بما كان بريئا منه، وقتلوه وهو في رحاب الحرم الشريف، ومن دخله كان آمنا، لكن ذلك كان بسبب سوء ظن طائفة بطائفة، وإثارة العصبيات هي التي تقطع الصلات بين ابناء الدين الواحد.. ومع أن هذه حادثة فردية، وعلى غير أساس.. فإنها أثرت في كثير من المفكرين تأثيرا كانت له عاقبة محمودة، فقد أراد الله للمسلمين أن يلمسوا بأنفسهم موضع الداء.. داء التفرق المذهبي فكانت هذه الواقعة- بعد أن تكشفت الحقيقة- حافزا للتفكير والعمل، وكثيرا ما يأتي الشر بالخير، فقد تساءل العقلاء: كيف تعيش أمة متفرقة تعادي بعضها بعضا في عالم الأقوياء؟.. وكيف يمكن أن نقدم للعالم مبادئ الإسلام، بينما الإسلام في حرب بين أبنائه وأنصاره داخل بلادهم؟.. وكيف نقنع العالم بأن الإسلام دين التسامح إذا كان التسامح مفقودا بين المسلمين أنفسهم؟.

يقول الإمام القمي: من هنا جاءت فكرة التقريب.. فقمنا بدراسة المشاكل الطائفية، والكتب المعتمدة عند الشيعة والسُنة لنحدد الطوائف التي تتفق في الأصول الإسلامية، ودرسنا أيضا الخلافات الفقهية في الفروع.. وتوصلنا الى أن الهدف هو توحيد صفوف المسلمين على الأصول والمبادئ الجوهرية في الإسلام على أن يبقى الشيعي شيعيا، والسني سنيا وأن يسود الاحترام بينهما، وأن تتكون جماعة التقريب ممثلة للمذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السُنة، وممثلي مذهب الشيعة الإمامية، ومذهب الشيعة الزيدية، وأن يمثل كل مذهب من المذاهب الستة علماء من ذوي الراي والمكانة فيه، وأن تكون هذه الجماعة مستقلة بعيدة عن السياسة، ويكون عملها محصورا في البحث العلمي ومحاربة الأفكار الخرافية التي لا تعيش إلا في ظل الجهل، والغموض، وقررنا أن تعمل الجماعة أيضا على مقاومة الطوائف والنحل التي تخالف مبادئ الإسلام والتي يحسبها الشيعي سُنة، ويحسبها السُني شيعة، بينما هي في حقيقتها مخالفة للإسلام.

ويقول الإمام القمي: هكذا تكونت جماعة التقريب، وقمت بالاتصال بالمراكز الدينية في كل بلد إسلامي بهدوء وبعيدا عن الدعاية، ولكن للمتعصبين والمتزمتين وذوي

النزعات والأغراض راوا في نشاط هذه الجماعة بدعة لا يصح السكوت عليها، فبدأوا الهجوم على الفكرة وعلى الجماعة، وكان الهجوم ذاته دليلا على ضرورة فكرة التقريب كي يتخلص المجتمع الإسلامي من العناصر ذات التفكير الجامد الذي يصرف الأذهان عما ينفع الناس، واذكر ان احد هؤلاء المتعصبين ملأ كتابا بالطعن على الشيعة والهجوم على جماعة التقريب واعتبر عملها فعلة نكراء، وفي نفس الوقت أعيد طبع كتاب من الطرف الآخر من الكتب المؤلفة في عهد الصفوية مليء بالهجوم على أهل السُنة.. ولم يقف الأمر عند هذين الكتابين.. بل جاء من مثلهما الكثير.. ورأى البعض أن ما نقوم به (محاولة مستحيلة)، ورأى آخرون أن هذه الدعوة وراءها هدف سياسي.. ولم يؤثر ذلك في عزيمة أهل العزائم، فاستمروا في الدعوة وأصدروا مجلة رسالة الإسلام، وكان كل عدد منها يزيل الستار عن جزء من المحجوب، وتبين من ابحاث الفقهاء والعلماء الثقات من السُنة والشيعة أن المشاكل الطائفية بينهما، إنما كانت نتيجة تحركهم في ظلام الجهل، حيث لم يكن بعضهم يرى الآخر إلا أشباحا مخيفة.. وظهر أن المسلمين لا يختلفون في الكتاب، ولا في الصلاة، ولا في الصوم، ولا في الحج، ولا يختلفون قيد أنملة في اصول العقائد وأصول الدين والتوحيد والنبوة، وليس يضيرهم أن يكون لبعضهم مذهب يقول عن الشيعة بأن عليا رضي الله عنه وأولاده أحق بالولاية من غيرهم.. وكان من نجاح جماعة التقريب ان تعرّف اهل السُنة على ابحاث واجتهادات الشيعة في الفقه، وتعرّف الشيعة على فقه السُنة، واكتشفوا إجماع الشيعة والسُنة على حب اهل البيت وإكرامهم، وان ما صدر عن بعض الظالمين لا يمثل راي اهل السُنة في أهل البيت. وعرف اهل السُنة ان الشيعة يعتبرون الغلاة نجسا ويحكمون عليهم وعلى أهل الحلول بالخروج على اصول الإسلام.

وإذن فشتان بين الشيعة على حقيقتها، والشيعة التي تصورها البعض متأثرين بالدعايات والأكاذيب.

بعد ذلك قامت وزارة الأوقاف بطبع بعض كتب الفقه في المذهب الشيعي، وجاء قرار الأزهر - في عهد الشيخ شلتوت- بتدريس مذهبي الشيعة الإمامية والزيدية في الأزهر، فقضى على آمال المتربصين والساعين الى إشعال الخلافات بين المسلمين.

وفي أول اجتماع لجماعة التقريب التقى علماء من السُنة والشيعة على مائدة واحدة، وحددوا هدفا واحدا لدعوتهم: علاج داء التفرق، وختموا لقاءهم بترديد الآية الكريمة (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها..) [١]

وكان من أعمدة دار التقريب بين السُنة والشيعة الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت الفقيه الأكبر شيخ الأزهر الأسبق، وقد كتب بنفسه قصة هذه الدعوة فقال: إنه عاصر خلالها إخوة احبهم واحبوه في الله، وكانت بينه وبينهم مناظرات بحثا عن الحقيقة، لأنه كان يؤمن بأن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، وأن أسلوبها هو الأسلوب الذي أمر به الله (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين). [٢]

ويقول: إن الذي يتقي الله هو الذي لا تأخذه عصبية، ولا تسيطر عليه مذهبية.. وفكرة الحرية المذهبية فكرة صحيحة مستقيمة وهي نهج الإسلام، وكان عليها الأئمة الاعلام في تاريخ الفقه وكانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، فلا يزعم احدهم انه اتى بالحق، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن كان العالم منهم يقول: هذا مذهبي وما وصل إليه جهدي وعلمي، ولست ابيح لأحد تقليدي او اتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت، فإن استقام الدليل في نظره وصح الحديث فهو مذهبي.

يتحدث الشيخ شلتوت عن الإمام القمي فيقول: إن أخي الإمام المصلح محمد تقي

---

(١) آل عمران ١٠٣.

(٢) النحل: ١٢٥.

القمي، ذلك العالم المجاهد، لا يتحدث عن نفسه، ولا عما لاقاه في سبيل دعوته، وهو أول من دعا الى هذه الدعوة، وهاجر من أجلها الى بلد الأزهر الشريف، فعاش معها والى جوارها، وظل يتعهدها بما اتاه الله من عبقرية وإخلاص وعلم غزير، وشخصية قوية، وصبر، وثبات، حتى رآها شجرة يستظل بظلها ائمة وعلماء ومفكرون في هذا البلد وفي غيره.

وعن الدعوة يقول الشيخ شلتوت: لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج سليم، واسهمت منذ اليوم الأول في هذه الجماعة وفي نشاط الدار، وكان من ذلك فصول في تفسير القرآن الكريم ظلت تنشرها مجلة (رسالة الإسلام) اربعة عشر عاما حتى اكتملت كتابا اعتقد انه تضمن اعز افكاري، واخلد اثاري، واعظم ما ارجو به ثواب ربي، وقد تهيأ لي بهذا النشاط العلمي- في دار التقريب- أن أعرف كثيرا من الحقائق التي كانت تحول بين المسلمين واجتماع كلمتهم، وائتلاف قلوبهم على أخوة الإسلام، وان اتعرف على كثير من ذوي الفكر والعلم في العالم الإسلامي.

وعندما اصبح الشيخ شلتوت شيخا للأزهر اصدر فتوى شهيرة بجواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، ومنها مذهب الشيعة الإمامية (الإثنا عشرية). وكان لهذه الفتوى صدى كبيرا في مختلف البلاد الإسلامية، وظلت تتوارد عليه الأسئلة والمجادلات، وظل الشيخ شلتوت سنة بعد سنة يشرح الأساس العلمي والفقهي لفتواه، ويرد على شبهات المعترضين، في مقالات واحاديث إذاعية وبيانات يصدرها ويدعو فيها الى وحدة المسلمين والتماسك والالتفاف حول اصول الإسلام، ونسيان الضغائن والأحقاد التي ظهرت في الماضي ولم تعد أسبابها قائمة.. وأخيرا انتصر الشيخ شلتوت على أعداء وحدة الصفوف الإسلامية فقال: (الحمد لله ان اصبحت دعوة التقريب بين السُنة والشيعة تجري بين المسلمين مجرى القضايا المسلّمة، بعد ان كان المرجفون في عهود الضعف الفكري والخلاف الطائفي والنزاع السياسي، يثيرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل).

بعد ذلك قرر الأزهر الأخذ بمبدأ التقريب بين المذاهب المختلفة، وقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية من السُنة والشيعة دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لمذهب أو لواحد من الفقهاء على غيره، كما قرر الأزهر أن يضم مجمع البحوث الإسلامية أعضاء ممثلين لمختلف المذاهب الإسلامية بما فيها مذاهب الشيعة المعتدلة.. ويعلق الشيخ شلتوت على ذلك بقوله: (وبهذا تكون الفكرة التي آمنا بها، وعملنا جاهدين في سبيلها، قد تركزت وأصبحت رسالة دار التقريب محل التقدير والتنفيذ).

ويتحدث الشيخ شلتوت عن الاجتماعات في دار التقريب حيث يجلس المصري مع الإيراني أو اللبناني أو العراقي أو الباكستاني أو غير هؤلاء من مختلف الشعوب الإسلامية، وحيث يجلس السني الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي بجانب الشيعي الإمامي والزيدي حول مائدة واحدة تدوي فيها أصوات العلم، ويسودها الأدب، وفيها تصوّف، وفقه، تجمع بينهم روح الأخوة.

كما يتحدث الشيخ شلتوت عن بعض المدافعين عن فكرة التقريب بين المذاهب فيقول: (أود لو أستطيع أن أبرز صورة الرجل السمح الذكي القلب، العف اللسان، رجل العلم والخلق المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، أو صورة الرجل المؤمن القوي الضليع في مختلف علوم الإسلام، المحيط بمذاهب الفقه أصولا وفروعا، الذي كان يمثل الطود الشامخ في ثباته، والذي أفاد منه التقريب في فترة ترسيخ مبادئه أكبر الفائدة، المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم رضي الله عنه وأرضاه، أو صورة الرجل الذي حنكته التجارب، ومحافل العلم والرأي، المغفور له الأستاذ محمد علي علوبة (باشا) جزاه الله عن جهاده وسعيه خير الجزاء.. وكذلك رجال (من الشيعة) وهبوا لنفسهم هذه الدعوة الإسلامية، وآمنوا بالتقريب سبيلا الى دعم قوة المسلمين وفي مقدمتهم الإمام الأكبر الحاج آقا حسين البروجردي أحسن الله في الجنة مثواه، والمغفور لهما الإمامان الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي رضي الله عنهما.

ثم يشير الشيخ شلتوت الى جانب آخر من الحرب والمعارضة لدعوة التقريب بين السُنة والشيعة، ويقول إن ذلك شان كل دعوة إصلاحية حين يتصدى لها الذين لم يالفوها، ولهذا لقيت دعوة التقريب نصيبا كبيرا من المعارضة لها والهجوم عليها بقدر اهميتها وعظم هدفها، فكان الجو السائد عند بدء الدعوة مليئا بالطعون والتهم، مشحونا بالافتراءات وسوء الظن من كل فريق بالآخر، وهوجمت الدعوة لا من فريق واحد بل من المتعصبين او المتزمتين من كلا الفريقين: السني الذي يرى أن التقريب يريد ان يجعل اهل السُنة شيعة، والشيعي الذي يرى أننا نريد أن نجعل منهم سنيين، هؤلاء وغيرهم أساءوا فهم رسالة التقريب فقالوا: إنها تريد إلغاء المذاهب، أو إدماج بعضها في بعض.. وحارب فكرة التقريب ضيقو الأفق، كما حاربها صنف آخر من ذوي الأغراض الخاصة السيئة، ولا تخلو اية أمة من هذا الصنف من الناس.. حاربها الذين يجدون في التفرقة ضمانا لبقائهم وعيشهم، وحاربها ذوو النفوس المريضة وأصحاب الأهواء والنزعات الخاصة، هؤلاء واولئك ممن يؤجرون اقلامهم لسياسات تدعو الى التفرقة باساليب مباشرة او غير مباشرة وتحارب كل حركة إصلاحية، وتقف ضد كل عمل يجمع شمل المسلمين ويوحد كلمتهم.

ويقول الشيخ شلتوت: إن دار التقريب ظلت تصدر بانتظام مجلة باسم (رسالة الإسلام) تنشر ابحاثا لأئمة السُنة والشيعة حول اوجه الاتفاق في الأصول والخلاف في الفروع.

واخيرا يقول الشيخ شلتوت: أصبحت فكرة التقريب نقطة تحول في تاريخ الفكر الإصلاحي الإسلامي القديم والحديث، ويحق للمسلمين ان يفخروا بانهم كانوا اسبق من غيرهم تفكيرا وعملا في تقريب مذاهبهم وجمع كلمتهم، وقد نجحوا في ذلك بفضل إخلاص القائمين على امر هذه الدعوة، وسلامة تفكير المسلمين (قل هذه سبيلي أدعو الى

الله على بصيرة انا ومن اتبعني)[١] و(كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)..[٢]

نستخلص من ذلك أن السُنة والشيعة يجمعهما الإسلام، وما يجمعه الله لا يفرقه إنسان.. والخلافات بين المذاهب ترجع الى طبيعة التفكير الإنساني وليس مرجعها الدين الإسلامي ذاته.. ولذلك فهي خلافات في التفسير وليست خلافات حول النص المقدس في القرآن، او حول أركان الإسلام، او حول الإيمان بالله وبالرسول..

ولكن المشكلة أن هناك متشددين من اهل السُنة، وهناك غلاة بين الشيعة، هم السبب في اشتداد الخلاف، وتبادل الاتهامات بالحق وبالباطل، وقد عمل كل جانب من المتشددين والمتزمتين على تشويه الجانب الآخر وإلصاق التهم به واختلاق الأكاذيب والأساطير حوله.

هناك اختلافات.. نعم.

ولكن هل في الجانبين من ينكر من هو معلوم من الدين بالضرورة؟.. لا.

إذن فهل يرضى الله أن يكون المسلمون متفرقين؟

هذا هو السؤال.

وجيش الاحتلال الأمريكي في العراق يتمنى أن تكون الإجابة (نعم) لكي يستقر له المقام في العراق لسنوات وسنوات وتمضي إسرائيل في مخططها، وينتقل الجيش الأمريكي الى المحطة التالية بعد العراق وهو آمن.

وجيوش الغزو جاهزة ومستعدة.. ورئيس الحرب جاهز ومصمم ومزهو بقوة الجيوش والسلاح.. والثغرة في صفوف المسلمين تسهّل له المهمة.

ورحم الله الإمام العظيم الشيخ شلتوت والأئمة العظام الذين أفسدوا المؤامرة في

---

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) آل عمران: ١١٠.

وقتهم.. أما نحن فإن واجبنا الآن أن نفسد المؤامرة في هذا الوقت.

والموضوع يحتاج الى بحث وتفكير لأنه يتعلق بالمستقبل.. مستقبل الأوطان الإسلامية، ومستقبل الإسلام ذاته!

لماذا ولمصلحة من نهدم جسور التواصل بين السنة والشيعة؟

معظم أهل السنة لا يعرفون شيئا عن مذاهب وافكار الشيعة، وبعضهم عرف قليلا عنها من اقوال أو عبارات أو احكام إدانة وهجوم من هنا وهناك، وبعضهم أخذ معلوماته من كتب قديمة كان لأصحابها عداء شديد للشيعة، وكان هذا العداء في الأصل لأسباب سياسية حول الخلافة والحكم وليس خلافا حول أصول الدين.. والنتيجة ان فكرة أهل السُنة عن الشيعة مختلطة بكثير من الأكاذيب والشائعات.. وهذا هو السبب في أن معظم أهل السُنة ينظرون الى الشيعة جميعا على أنهم فرقة واحدة، مع انهم فرق كثيرة.. منها فرق معتدلة لا تختلف كثيرا عن السُنة، وفرق اخرى لها افكار غريبة وبعيدة هي التي يسمونها (غلاة الشيعة) ولابد أن نفرق بين هؤلاء وهؤلاء، لأن الخلط بينهما واعتبارها شيئا واحدا هو الذي أدى الى استمرار الجفوة. بدون مبرر.

والمهم أن نفهم منزلة الإمام ومكانته عند الشيعة لنعرف كيف نتعامل مع الأئمة المعاصرين.

***

يقول محمد الحسين آل كاشف الغطاء - وهو من كبار علماء الشيعة الذين شاركوا في تأسيس جماعة التقريب بين المذاهب - إنه من المستحيل إزالة الخلاف بين المذاهب الإسلامية وجعلها مذهبا واحدا، لأن الخلاف واختلاف الراي من طبيعة البشر، وخالق البشر يقول، (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم). فلا يجدي التفكير في إزالة أصل الخلاف بين المذاهب، واقصى ما يمكن الوصول إليه هو إزالة الأسباب

التي تجعل هذا الخلاف سببا للعداء. وأن يكون الإخاء والتقارب بديلا عن التباعد والتضارب، لأن المسلمين مهما بلغ الخلاف بينهم فإنهم مجمعون على الشهادتين، ومن شهد الشهادتين فقد اتخذ الإسلام دينا وحُرّم دمه وماله وعرضه.. والمسلم اخو المسلم.. ومن صلى الى قبلتنا ولم يتدين بغير ديننا فإن له مالنا وعليه وما علينا.

ويقول: إن الفرق الجوهري بين السُنة والشيعة هو قضية الإمامة، فالشيعة ترى أن الإمامة أصل من أصول الدين، بعد التوحيد والنبوة، وأنها بالنص من الله ورسوله، وليس للأمة راي فيها ولا اختيار، كما أن الأمة ليس لها خيار في النبوة، وإخواننا من أهل السُنة متفقون على ان الإمامة ليست من أصول الدين، ويرون أن الإمامة يجب ان تكون بإجماع الأمة واختيارها وانها قضية سياسية ليست من الدين، لا من اصوله، ولا من فروعه، ولكن مع هذا التباعد هل يرى الشيعة أن من لا يؤمن بالإمامة ليس مسلما؟ كلا ومعاذ الله. وهل تجد السُنة تقول: إن من يؤمن بالإمامة غير مسلم؟ كلا ومعاذ الله. هل يقول السنة: إن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام؟ لا.. وكلا. إذن فإن القول بالإمامة أو إنكارها لا علاقة له بأحكام الإسلام الجامعة من حرمة دم المسلم ووجوب اخوته.

وبصراحة يقول الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. لعل قائلا يقول: إن سبب العداء بين الطائفتين أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم، وقد يتجاوز البعض الى السب، مما يسيء الى الفريق الأخر ويهيج مشاعرهم فتشتد الخصومة بينهم. ولو تبصرنا قليلا ورجعنا الى حكم الشرع والعقل لم نجد ذلك موجبا للعداء:

أولا : لأن هذا ليس راي جميع الشيعة، وإنما هو راي بعضهم، وربما لا يوافق عليه الأكثر، فلا يصح معاداة الشيعة جميعا لإساءة بعض المتطرفين منهم.

ثانيا : إن هذا لا يكون موجبا للكفر والخروج على الإسلام، واقصى ما هناك ان يكون معصية، وما أكثر العصاة من الطائفتين، ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعا.

ثالثا: قد لا يدخل ذلك في المعصية، ولا يوجب الحكم بالفسق إذا كان ناشئا عن اجتهاد واعتقاد، وإن كان خطأ، فإن من المسلم به عند الجميع في باب الاجتهاد أن من اجتهد واخطأ فله اجر وللمصيب اجران.

وهكذا مهما تعمقنا في البحث واعتمدنا على الأدلة العقلية والشرعية وتجردنا من الهوس والعصبيات فلن نجد أي سبب يبرر العداء بين طوائف المسلمين مهما اتسعت الخلافات بينهم في كثير من المسائل مادامت هذه المسائل الخلافية لا تنكر أصلا من أصول الإسلام أو ركنا من أركانه.

وكيف نقبل استمرار الخلافات بعد كل ما سببته من البلاء، مثل ضياع الأندلس والقوقاز وبخارى ونحوها؟ ولو أن المسلمين كانوا في تلك الأيام يدا واحدة كما أمرهم الله لما انتزع منهم شبر واحد، ولننظر الآن الى ما يحدث في فلسطين وهي الفردوس الثاني المفقود.

وفي هذا السياق كتب الفقيه الأكبر الشيخ حسنين مخلوف وهو مفتي الديار المصرية يقول: إنني من المؤمنين بفكرة التقريب بين المذاهب لأن الإسلام دين الوحدة كما هو دين التوحيد، يشرع أسباب التجمع، وينهى عن أسباب التفرق، وينهى عن الجدال فيما لا يجدي.

(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات).. (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) [1] و(وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم، وإن الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب، فلذلك فادع، واستقم كما امرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما انزل الله من كتاب، وامرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا واليه المصير). [2]

---

(١) الانعام: ١٥٩.

(٢) الشورى: ١٤ و١٥.

ويقول الشيخ مخلوف: إن المسلمين منذ عرفوا الاختلاف والطائفية، وصاروا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون، وهنت قواهم، وتمكن منهم أعداؤهم، وجعلوا ينحدرون من سيىء الى اسوأ.

***

وكتب الشيخ عبد المتعال الصعيدي وهو من كبار أساتذة الأزهر يقول: إن الخليفة المامون راى أن يعقد مجالس مناظرة بين الفرق الدينية، فامر قاضي القضاة- وكان من أهل السنة- ان يجمع الفقهاء واهل العلم في بغداد، فاختار اربعين رجلا من الأعلام، ولكنه - مع ذلك - لم يستطع أن يجمع المسلمين على مذهب واحد، فلجا الى إكراه المخالفين على ترك مذهبهم فلم يحقق ذلك سوى التعصب والعناد، وحتى عندما لجا المامون الى سجن المخالفين لم يحقق ذلك شيئا ولكنه ادى الى زيادة الخلاف، وقد جعل المامون أهل السنة يقولون بالإكراه: إن القرآن مخلوق، فشغل الدولة بهذه القضية (هل القرآن قديم او مخلوق؟) وانصرف الناس عن الأمور النافعة وادى ذلك الى ضياع سنوات في الخلافات والصراعات، والدرس المستفاد من ذلك أن يترك الناس أحرارا فيما يعتقدون، حتى الكافر المعاند، فلا يصح أن يحمل بالإكراه على ترك الكفر تحت تهديد بالعقاب، لأن الله تعالى قال في الآية (٢٩) من سورة الكهف: (وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقا) فلم يذكر عقابا للكافر في الدنيا، ولكن ذكر عقابه في الآخرة، لأن عقاب الدنيا لا يؤدي الى الإيمان، ولكن يؤدي الى النفاق والتظاهر بالإيمان.. وهذا ما تؤيده الآية الكريمة في سورة البقرة (٢٥٦): (لا إكراه في الدين..).

وكان من نتيجة تفهم علماء السنة لمذاهب الشيعة أن خرجوا عن دائرة مذاهب

السنة الأربعة الى مذهب من مذاهب الشيعة، وذلك في قانوني الطلاق والوصية وغيرهما، فقد أخذوا برأي ابن تيمية، وابن القيم، والشيعة الإمامية، وتم ذلك بهدوء ورضا، وفي الأخذ بمذاهب السنة والشيعة المعتدلة توسعة للمسلمين.

***

هل كانت دعوة التقريب بين المذاهب دعوة الى تنازل أصحاب مذهب معين عن مذهبهم؟ وبمعنى آخر، هل ترضى الشيعة ان تتنازل للسنة عن افكارها، أو ترضى السنة باعتناق افكار الشيعة بالكامل؟.

كانت هذه هي نقطة الهجوم الرئيسية على فكرة التقريب بين المذاهب، بالرغم من انها دعوة الى التقريب وليس التوحيد، دعوة الى التفاهم والتعايش وليست دعوة الى الإلغاء أو التنازل، وكان الإمام محمد القمي يجيب كلما واجهته هذه الاعتراضات بالقول بأن الفكرة ان يتحد أهل الإسلام على اصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلما إلا بها، اما نقاط الخلاف في الفروع فعليهم أن ينظروا فيها بالتسامح، ويعذر بعضهم بعضا فيها، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالحجة والدليل الى اتفاق في شيء منها فهذا خير، وإذا بقي كل طرف على موقفه فليحتفظ بما يراه، على أساس أن الخلاف في امر لا يدخل ضمن أصول الدين لا ينقص الإيمان، ولا يخرج المختلفين عن دائرة الإسلام. وليس في نقاط الخلاف بين السنة والشيعة ما يستحق الخصام، ولم يحدث أن قال احد من علماء السنة بمذاهبها، والشيعة الإمامية والزيدية، بكفر طائفة منها، أو الخروج عن الإسلام، لأن العلماء في مذاهب السنة والشيعة اجمعوا على انه لا خلاف في المسائل الجوهرية، ومن يعرف أصلا من اصول الإسلام انكرته إحدى هذه الطوائف، أو انها زادت من اصول الإسلام ما ليس منها على سبيل اليقين، فليدلنا عليه ويقدم برهانه على ذلك.

وكان أعضاء جماعة التقريب بين المذاهب متفقين على ان المسلمين كلهم شيعة

لأنهم جميعا يحبون اهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلهم اهل سنة لأنهم جميعا ملتزمون بالأخذ بسنة الرسول المؤكدة، فنحن جميعا سنيون، شيعيون، قرآنيون، محمديون.

وكانوا يرون ان الخلافات بين أهل السنة موجودة بين مذهب الشافعية ومذهب الحنفية في بعض المسائل، مثل نواقض الوضوء مثلا، فهل نعتبر ذلك خلافا يوجب ابتعاد أحدهما عن الآخر؟. وليس من أهداف التقريب بين المذاهب إدماج المذاهب الفقهية، لأن الخلاف أمر طبيعي، ما دام محدودا في الدائرة التي اباح الله الاجتهاد فيها، فلا ضرر منه في هذه الحالات، بل فيه خير وتيسير للمسلمين.. ومع ذلك فإن أصحاب المذاهب الفقهية انفسهم اباحوا الخروج على مذاهبهم، واباحوا الأخذ ببعض ما فيها والأخذ ببعض ما في غيرها في نفس الوقت، وكان الإمام الشافعي يقول: هذا هو الرأي الذي رايته، فإذا صح الحديث بما يخالف رايي، فاضربوا بقولي عرض الحائط. فالمرجع هو قول الله والحديث المؤكد عن الرسول (ص) ، والقاعدة التي اوجبها الله علينا في كتابه: (فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير واحسن تاويلا).[1] وهكذا فإن كل مجتهد لابد أن يرى أن مذهبه الفقهي صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب.

ولماذا لا يدرس أهل السنة مذهب الشيعة الإمامية والزيدية، ويدرس الشيعة مذاهب السنة الأربعة؟ لماذا لا يعرف المسلمون بعضهم بعضا؟ ولقد كان الأزهر الشريف قلعة التسامح الفكري فقرر دراسة مقارنة للمذاهب منذ عهد الإمام الأكبر الشيخ المراغي، وتبعه الإمام محمود شلتوت، كما أن الأزهر حريص على دراسة مذاهب الفلاسفة أيضا،

---

(١) النساء: ٥٩.

والمعتزلة، والجبرية وغيرهم، ليكون رجل الدين المسلم على علم بكل الأفكار والمواقف في المذاهب الإسلامية القديمة والحديثة..

ولا شك أن الخطوة الكبرى كانت عندما أخذ قانون الأحوال الشخصية في مصر في السبعينات بأحكام من فقه الشيعة، وكان الذين أعدوا هذا القانون من صفوة رجال الأزهر وكبار علمائه.

ومع ذلك فلا أحد يدعو، أو يفكر، في الاندماج أو التوحيد.. الفكر والدعوة الى التفهم.. والتفاهم.. والتجمع في خيمة واحدة وتحت راية واحدة.. والتسامح فيما عليه خلاف.

***

عندما ذهب الخليفة المنصور الى الحج التقى بالإمام مالك ودرس منهجه، وقال له: قد عزمت أن آمر بكتبك هذه فتنسخ، ثم أبعث بها في كل الأمصار، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه الى غيره، فقال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا.. فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم بما وصل إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم. هذا ما رواه التاريخ في ذلك الشأن الإسلامي الخطير كما ورد في كتاب (حجة الله البالغة للدهلوي- ص ٤٥- الجزء الأول).

فالخليفة شهد اختلاف العلماء في عصره، وأراد أن يوحد المسلمين على مذهب واحد لينتهي الجدل والخلاف بين العلماء، وأراد أن يكون مذهب الإمام مالك هو المذهب الأوحد، لكن الإمام مالك نفسه هو الذي رفض فكرة إلغاء المذاهب أو توحيدها، لأنه يرى أن الخلاف بين المذاهب ليس صادرا عن الهوى أو التعصب، ولكنه صادر عن اختلاف في الفهم

والتفسير، وهذا طبيعي بالنسبة للعقل البشري، وإن كان الجميع متفقون على الأصول إلا أن اعتماد الناس على روايات مختلفة عن أقوال وأفعال الرسول باختلاف الرواة جعلهم يؤسسون مذاهبهم عليها، وربما تكون الرواية قد بلغت أهل بلد ولم تبلغ غيرهم، خصوصا أن الأحاديث النبوية لم تكن قد تم تدوينها وتمحيصها وكان الاعتماد على الذاكرة والحفظ.

وفي هذا الاختلاف بين المذاهب حكمة، لأن المسلم حر في أن يأخذ من كل مذهب ما يرتاح إليه قلبه ويقتنع به عقله، وكلها معبرة عن جوهر الإسلام.. ومن مزايا الفقه الإسلامي أنه ترك باب الاجتهاد مفتوحا، لأن القضايا الجديدة التي تطرح للبحث كل وقت لن تنتهي ولن تتوقف عند حد، وكلما جاء جيل جاءت معه تصرفات وموضوعات وقضايا ومشكلات تحتاج الى الاجتهاد في الوصول الى الرأي الذي يتفق مع أصول الدين.

وليس الإمام مالك وحده هو الذي رفض توحيد أو إدماج للمذاهب، ولكن الإمام ابو حنيفة أيضا رفض التعصب لمذهب وكان يقول: لا ينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، وكان يقول بعد كل فتوى: هذا رايي، فمن جاء باحسن منه فهو اولى بالصواب.

كذلك كان الإمام الشافعي يتحفظ في التمسك بمذهبه، ويقول: إذا صح الحديث (الذي يستند إليه في فتواه) فهو مذهبي. ويقصد انه إذا كان هناك حديث صحيح عن الرسول يخالف فتواه، فإن هذا الحديث هو الذي يجب الأخذ به. وقال الشافعي لتلميذه ابراهيم المزني: يا إبراهيم لا تقلدني في كل ما أقول، وانظر في ذلك لنفسك.

وكان الإمام احمد بن حنبل يقول: ليس لأحد مع الله ورسوله كلام.

وكان يقول لكل تلميذ من تلاميذه: لا تقلدني ولا تقلد الإمام مالك ولا الأوزاعي ولا

النخعي، ولا غيرهم، وخذ الأحكام من حيث أخذوا.. من الكتاب والسنة.

وكان الإمام ابو حنيفة واصحابه، والإمام الشافعي واصحابه، يصلون خلف من يختلفون معهم في المذهب، ويصلون خلف ائمة المدينة، وكان مذهبهم الا يقرأ الفاتحة إلا الإمام ولا يقراها الآخرون، على اساس ان قراءة الإمام هي الواجبة وليس على الآخرين قراءة..

ولم يقل احد إن باب الاجتهاد قد أغلق إلا في عصر انحطاط المسلمين.

اما الشيعة الإمامية والزيدية فيرون بقاء باب الاجتهاد مفتوحا الى يوم الدين. والعقلاء من أهل السُنة يرون ذلك ايضا..

التعقيب:

اننا اذ نقوم بنشر مقاطع قليلة مختارة من مقال مفصل للاستاذ الموقر رجب البنا رئيس تحرير مجلة اكتوبر المصرية نشرته في اعدادها التي تبدأ بالرقم ١٤٤٢ نود ان نطرح النقاط التالية:

المهم ان هذه المقالات كتبت بروح موضوعية واتجاه تقريبي سليم نود ان يسود كل كتاباتنا عن الآخرين، فتسهم في توفير الجو الصحيح للحوار، وقد نختلف في بعض الجزئيات مع الاستاذ الكاتب الكبير ـ وسيأتي التنبيه الاجمالي على ذلك ـ ولكن ذلك لا يقلل من اهمية هذه المقالات.

ويدخل الخلاف في اطار الاجتهادات الفقهية او التاريخية او العقائدية وغيرها، ونحن فيها متبعون لقاعدة (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه).

فنشكر الاستاذ الكبير على هذه الروح الطيبة.

وما نود ان ننبه عليه يمكن تلخيصه في نقاط هي:

١- ان ماذكر عن غلاة الشيعة امرٌ صحيح، والشيعة الاثنا عشرية انفسهم يتبرأون من الغلاة ، بل ان الأئمة من اهل البيت (عليهم السلام) شنوا حملة شعواء عليهم وطردوهم وحذروا اتباعهم منهم، فلا داعي لخلط ذكرهم بالبحوث الشيعية، ولا نرى ضرورة عرض غسيلهم القذر من جديد.

٢- وقد نبه الأئمة انفسهم أنهم (عليهم السلام) عباد مطيعون لله تعالى، وان حبهم يتجلى في التقوى وعبادة الله تعالى، فلا معنى لتسريب امثال عقيدة الفداء والشعب الممتاز الى اتباعهم ، بل ان العاصي من اتباعهم قد يستحق العقاب مرتين لانهم يتسببون بذلك في التشكيك بتعاليم اهل البيت الاصيلة.

٣- نحن مع الاستاذ البنا في ضرورة تنقية التراث من افرازات عصور الظلام والاحن والكذب والوضع والتزوير، وربما تم ذلك بقصد القربة!!

٤- ثبت بالدليل القاطع ان شخصية عبدالله بن سبأ اما هي شخصية اسطورية تؤثر بشكل خرا في على مجرى الاحداث دون ان تترك اثرا حسياً، او هو وجود تافه مرفوض من قبل الجميع، فلا داعي لترداد اسمه وتضييع الوقت فيه.

٥- من الخطأ ان يقال: ان الشيعة يرفضون روايات اهل السنة ورواتهم، في حين ان كتب الشيعة والسنة ملأى بروايات ورواة مشتركين . وقد بدا المجمع بطبع سلسلة روايات في هذا الشأن.

نعم قد يختلفون في توثيق هذا الراوي او ذاك، وتضعيف بعض الاسناد او العمل ببعض الروايات تبعاً لاجتهادهم في الأمر ولا ضير في ذلك.

٦- نحن مع الاستاذ في التأكيد على ان اسباب الخلاف والتخوف والتشكيك قد فقدت موضوعيتها (ع ١٤٤٧).

٧- يجب اعادة النظر في اساليب تحامل بعض الكتاب على هذا المذهب او ذاك بدواعي كثيرة منها: الجهل او التعصب او السياسة، ونشير هنا الى اساليب احسان الهي ظهير واحمد امين وعبدالمنعم النمر والتيجاني وكثير من المستشرقين من امثال جولد تسيهر وغير هؤلاء، فإنها لا تثمر الا العداء والضياع.

٨- والحقيقة ان التلخيصات التي تأتي في ختام كل حلقة تحفل بكثير من الحقائق.

٩- ونحن نعتقد ان الكثير من موارد الخلاف:

أ. اما انه عاد تاريخيا قد لا يجد له موضوعا اليوم.

ب. او أنه لم يفهم على حقيقته، وعندما يوضح ربما يعود خلافا لفظيا لا غير.

ج. او انه لا يترك أثرا عمليا وان كان له مضمون علمي.

١٠- ونحن نعتقد ان اساليب الحوار القرآنية هي السبيل الاقوم للوصول الى الحقيقة، والتفكير بالاهداف العليا ومواجهة التحديات العاصفة التي تعمل على نفي ثقافتنا بل وجودنا الاسلامي.

النموذج الثاني:

عاشوراء في التاريخ

أ.د. عزالدين ابراهيم

مفكر اسلامي كبير

الاحتفاء بعاشوراء

يوم عاشوراء يوم مبارك ومتميز في التاريخ، قدره العرب الاقدمون واحتفلوا به، وهو عند اهل الكتاب وخاصة العبرانيين يوم مقدر ايضا، غير انه يقع عندهم وفقا للتاريخ العبري في شهر تشري (بكسر التاء وسكون الشين) الذي قد يتوافق احيانا - وليس دائما - مع شهر المحرم في التاريخ الهجري. ثم انه يوم مقدر ومبارك عند المسلمين السنة، وإخوانهم المسلمين الشيعة.

ومع أهمية هذا اليوم، فإن الكتابة عنه بصفة موضوعية، مازالت غير كافية، مما يؤدي الى عدم وضوح الرؤية التاريخية، واختلاف التفسير، وتفاوت طريقة التذكر والاحتفاء. ومقصودي من هذا المقال، ان احاول بأقصى ما استطيع من الحيدة والموضوعية والتدقيق العلمي، أن اقدم صورة عن هذا اليوم، تبين حقيقته ومنزلته، او تقترب ما أمكن من ذلك. فأذكر اولا معنى (عاشوراء) في اللغة والاصطلاح، ثم ابين التفسيرات المتعلقة به بين الفرقاء المعنيين به في التاريخ على مر العصور، وكذلك الممارسات والشعائر المنبثقة عن هذه التفسيرات، ما كان منها صحيحا او كان غير ذلك، واخيرا، بيان بعض الدروس التي يمكن ان تستخلص من ذلك.

عاشوراء في اللغة والاصطلاح

يميل علماء العربية الى تأكيد عروبة كلمة (عاشوراء)، بمعنى ان اصلها عربي وليست منقولة عن لغة اخرى. فيقول الخليل بن احمد وغيره ان العرب أخذوها من لفظ (العاشر) وبنوها على صيغة (فاعولاء) الممدودة. وقال سيبويه وتابعه ابن منظور في «لسان العرب» إن الكلمة مأخوذة من (العشر) أي العدد العاشر، وجاءت على وزن (فاعولاء) وهو وزن عربي، وإن قلت شواهده، ومنها: (السار وراء) من السراء وهي المسرة، (والضاروراء) من الضراء وهي للضرة، و(الدالولاء) من الدلال، وأورد الزبيدي في «تاج العروس»: (الحاضوراء) من الحضور، و(الساموعاء) من السماع. وقال القرطبي في التفسير: عاشوراء هي معدول عاشرة، صفة لليلة العاشرة والمد للمبالغة والتعظيم.

ومن المستشرقين ـ كالعادة ـ من ينازع في عروبة الكلمة من حيث الاصل، كما فعل فنسك محرر مادة (عاشوراء) في دائرة المعارف الاسلامية، اذ ردها الى الكلمة العبرية (عاشور) بمعنى العاشر. وقد فعل مثل ذلك غيره حتى مع لفظ (قرآن) ظناً منهم ان لايكون هذا اللفظ الكريم عربي الاصل! وهو الذي نزل بوصف الله تعالى له «بلسان عربي مبين».

وأياً ما كان الأمر، فإن الكلمة، اصيلة كانت ام منقولة، فهي من كلمات الحديث الشريف، ولها موقعها في المعاجم والاستعمال العربي المستفيض، بمعنى الليلة العاشرة من المحرم التي يسن او يجب صيامها على اختلاف الحكم الفقهي. وتلحق بها الليلة التاسعة فيقال عنها (تاسوعاء). وللعامة تأويل في (تاسوعاء) بانها ليلة التوسعة، بلا قياس. ولا يجادل العامة فيما يقولون، والتوسعة تلحق صيام المواسم على اي حال.

وقد اوردت هذا الجدل اللغوي لأؤكد ان الكلمة قديمة في اللسان العربي ، دون ان يكون للعبرية واليهود دخل في ذلك. واشتراك العربية من العبرية في كثير من المفردات كثير ومشهور، فهما من اسرة لغوية سامية واحدة. أما المضمون في كلمة (عاشوراء) فقديم بلا خلاف كما سنبين.

عاشوراء قبل الاسلام

من الثابت ان عرب الجاهلية عرفوا يوم عاشوراء ووقروه واحتفلوا به. ولكن وقع الخلاف حول الاسباب التي من اجلها وقروه. ويوجد قول شائع ـ ولكنه ليس بالضرورة معتمدا ـ وهو ان يوم عاشوراء هو يوم نجاة نوح عليه السلام ومن معه في السفينة من الطوفان الذي احاط بهم. وقد اورد هذا القول محمد بن جرير الطبري في تفسيره الآية ٤٨ من سورة هود (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك)، واستند في ذلك الى حديث مرفوع ورد في مسند احمد (الفتح الرباني ج ١٠ ص ١٧٣ عن ابي هريرة). وقد تبع الطبري المفسرون الفخر الرازي وابن كثير والقرطبي نقلا لا مناقشة. ولكن جاء من بعدهم من توقفوا عن قبول هذا الخبر، نظرا لتفرد احمد بروايته في المسند. وباعتبار ان تفاصيل قصة نوح هي من الغيبيات، لقوله تعالى في الآية ٤٩ من سورة هود (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل) (انظر تفسير الطاهر بن عاشور ج ١٠ ص ٦٢).

إلا أن المجمع عليه هو الخبر الوارد في الصحيحين وعند الترمذي والموطا واحمد مرويا عن عائشة وابن عباس وابن مسعود (رض) بان قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية، وان رسول الله (ص) كان يصومه، وكان يوما تستر فيه الكعبة. فلما فرض الله صيام رمضان قال رسول الله (ص): (من شاء ان يصومه فليصمه ومن شاء ان يتركه فليتركه) وبلغ من اهتمامهم بهذا اليوم انهم كانوا يشجعون الصغار على صومه، كما ورد في البخاري عن الربيع بنت معود قولها: (كنا نصومه، ونصوّم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العهن (كرة الصوف)، فإذا بكى احدهم على الطعام أعطيناه ذلك حتى يكون الافطار).

والظاهر ان صيام عاشوراء في الجاهلية كان وفقاً لليوم الطويل ابتداء من نوم الليلة السابقة وانتهاء بمغرب اليوم التالي، لأن التخفيف بجعل الصيام مقصورا على الفترة بين

الفجر والغروب، انما وقع في الاسلام كما ورد في سورة البقرة.

وقد تتبع شراح هذه الاحاديث عن عاشوراء قبل الاسلام كل من ابن حجر في (فتح الباري)، والكاندهلوي في (اوجز المسالك)، وابن قيم الجوزية في (زاد المعاد)، واستظهروا اسبابا لذلك الاهتمام منها: اتباع ابراهيم واسماعيل عليهما السلام في تكريم الكعبة في يوم مكرم، أو اتباع لنبي سبق، ربما هو (نوح)، وفقا للخبر الذي أوردناه سابقا، أو اتباع لما ثبت لدى اليهود عن منزلة هذا اليوم كما سنبينه.

والذي يتلخص لنا مما سبق هو ان (عاشوراء) كان يوما مرموقا في الجاهلية لواحد أو اكثر من الاسباب المذكورة، والجمع بينها غير مستنكر. وان رسول الله (ص) قد استصحب هذه الممارسة في الاسلام، فصام عاشوراء وتحراه وبشر بأن صيامه يكفر السنة الماضية كما ورد في البخاري عن ابن عباس.

عاشوراء في صدر الاسلام وبعد الهجرة

ظل حال (عاشوراء) في صدر الاسلام، على ماكان عليه قبل ذلك، من حيث افراد اليوم بالتوقير والصيام. فلما كانت الهجرة وانتقل النبي (ص) والمؤمنون الى المدينة جد سبب اضافي لتعزيز هذا اليوم. ففي الصحيحين ومسند احمد عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: قدم النبي (ص) إلى المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ماهذا؟ قالوا: يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى. قال: فنحن اولى بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه.

ولفهم هذا الحديث نذكر بعض الملحوظات: اولاها ما بيناه سابقا من ان هذا اليوم الصالح في التقويم العبري هو العاشر من شهر تشري، وقد توافق في تلك السنة بالذات مع المحرم، وإلا فان النبي (ص) على علم بل وممارسة لما يستحقه العاشر من المحرم، ولم يكن ليستقي معلوماته بادئ ذي بداءة من اليهود. والملحوظة الثانية ذكرها القسطلاني - احد

شراح البخاري- وهي أن الرسول لم يأمر بتقليد اليهود، لأن ذلك غير وارد في السلوك الاسلامي الذي يحرص على التميز، وإنما أمر بالاحتفاء بالعلة وبالنبي موسى عليه السلام. والعلة هنا هي إحدى المعجزات الإلهية التاريخية التي أكرم الله بها النبي موسى، إذ شق له البحر فنجا هو ومن معه من بني إسرائيل، وغرق فرعون وجنوده، وهي علة تستحق التنويه والإكبار، وتتفق بشكل عجيب مع علة نجاة النبي نوح ومن معه في السفينة يوم فار التنور، وغرقت الأرض بما يشبهها ولو بدرجة محدودة ما فعله طوفان (تسونامي) الأخير في الشرق الأقصى.

والملحوظة الثالثة هي أن النبي (ص) أراد أن يستميل اليهود في واحد من عدة محاولات قام بها معهم، ولكنها لم تنزع سخيمة قلوبهم وعداواتهم، ولم تجد معهم كثيرا، إذ ناصبوا المسلمين العداء وتحالفوا مع مشركي قريش كما هو معلوم في التاريخ. وظل الحال كذلك حتى السنة الثانية من الهجرة، حيث فرض صيام رمضان وتحددت صفاته ومدته اليومية، فترك صيام عاشوراء بالخيار، فمن شاء صامه، ومن شاء لم يصمه. وإن كان التوجه التعبدي عند الجمهور هو الصيام. وبهذا يكون المفهوم الشرعي بعاشوراء قد اكتمل ، باعتبارها مناسبة دينية لها عمق تاريخي يحتفى بها بالتذكر والشكر والتعبد.

عاشوراء بعد سنة ٦٠هـ

بعد عام ٦٠هـ طرأت على مفهوم عاشوراء إضافة لا يمكن ولا يجوز تجاهلها، لأنها لونت المناسبة بلون أسود قاتم، ومزجت عاشوراء بمشاعر الأسى والحزن، في كل البلاد الإسلامية وخاصة تلك التي يتمركز فيها إخواننا الشيعة. ففي العاشر من محرم سنة ٦١هـ وقعت معركة كربلاء بين رجال يزيد بن معاوية الخليفة الأموي الثاني، والخارجين على الحكم الأموي بقيادة سبط رسول الله(ص) الإمام أبي عبدالله الحسين بن

علي رضي الله عنهما، وقد استشهد في هذه المعركة الامام الحسين، وعدد من آل البيت، بما يسمى بالفترة الثانية من (الفتنة الكبرى).

و(الفتنة الكبرى) اصطلاح تاريخي، يطلق على فترة الخلافات والمنازعات التي حصلت بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) ، ولهذه الفتنة فترتان: الأولى سنة ٣٥هـ وحتى عام المجاعة سنة ٤١هـ، حينما تنازل الإمام الزاهد الحسن بن علي (رض) عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان حقنا للدماء وجمعا لشمل المسلمين، والثانية من ٦٠هـ إلى سنة ٦٤ هـ ، مدة حكم يزيد بن معاوية وفيها وقعت معركة كربلاء المؤسفة. ومنهج أهل السنة في رصد الفتنة الكبرى هو عدم الخوض في تفاصيلها وكثرة الكلام عنها، والأخذ بمقولة (فتنة سلم منها سيوفنا، فلنسلم منها السنتنا).

وعندما أصدر الدكتور طه حسين كتابه (الفتنة الكبرى) عاب عليه بعض الناس ذلك لأنه نكا الجروح.

وما كان لي ان أخرج عن منهج أهل السنة، لولا انني ادرس (عاشوراء) وماجد على مفهومها من إضافة غير بسيطة، وتقتضيني الأمانة العلمية أن أذكر ذلك.

وبصورة إجمالية فإن (عاشوراء) قد حملت بعد كربلاء معنى جديدا، هو التصاقها بذكرى استشهاد الحسين بكل ما فيها من احزان وعبر، والحزن والاعتبار هو موضوع إجماع المسلمين سنتهم وشيعتهم، وكيف لا والمقتول إمام، وسبط للرسول (ص) الذي حكى القرآن الكريم أنه لم يسأل الناس شيئا (إلا المودة في القربى).[١] ولكن المواقف بعد ذلك متفاوتة.

فأما في البلاد الإسلامية السنية، فقد بقي فيها المفهوم الشرعي الأصلي لعاشوراء على ماهو عليه بما في ذلك صوم يوم عاشوراء وتاسوعاء. واضيفت ذكرى كربلاء على انها ملحظ تاريخي اسلامي محزن.

---

(١) الشورى: ٢٣.

واما في البلاد الاسلامية التي يتمركز فيها إخواننا الشيعة، فقد غلبت عليها كربلاء، وبرزت واصبحت هي السمة الرئيسية لعاشوراء، ومددت فترتها لتشمل الأيام العشرة الأوائل من المحرم، مع الاهتمام باليوم العاشر بوجه خاص، كما اضيف اليوم العشرون من شهر صفر، باعتبار انه يصادف ذكرى الأربعين على استشهاد الحسين طيب الله ثراه. ولا ينبغي حمل اهل السنة على أنهم استهانوا بكربلاء ونتائجها، فإن ذلك قد يصدق على يزيد بن معاوية ومعاونيه، ولكنه لا يصدق على عموم أهل السنة الذين يجعلون آل البيت ويحبونهم بما هم له اهل. ومن ذا الذي لا يتأثر ويحزن وهو يتذكر احداث كربلاء وشهيدها، ويقرا كلمات السيد الحميري في الحسين، التي تحرك الحجر فضلا عن البشر:

وإذا مررت بقبره	فاطل به وقف المطيه
وابك المطهر للمطهر	والمطهرة التقيه
كبكاء معولة اتت	يوما لواحدها المنيه

كما انه لا ينبغي أن نفسر موقف الشيعة من عاشوراء كربلاء، بانه يتضمن الغفلة عن المفهوم التاريخي التراكمي ليوم عاشوراء. فإن هذا المفهوم واضح لديهم وضوحه لدى اهل السنة، ومن أراد من السنة ان يتثبت، او اراد من الشيعة أن يجدد التزامه بذلك المفهوم، فليقرا مثلا باب (صوم يوم عاشوراء) في كتاب ابي جعفر الطوسي (الاستبصار ج ٢، ص ١٣٤ و١٣٥) والاستبصار هو احد الكتب الأربعة المعتمدة لدى الشيعة، ليجد أن ماورد فيه لا يختلف عما هو في كتب السنة الستة. وهذه مسالة يغفل عنها كثير من الناس، وهي أن اختلاف الكتب المعتمدة بالأعيان والأسماء لا يعني اختلافها في المضامين، فان المشترك بين مضامين أربعة الكتب التي للشيعة وستة الكتب التي للسنة لا يقل عن تسعة الأعشار.

إلا انه يلزم التاكيد بان موقف إخواننا الشيعة من عاشوراء هو موقف ديني وتاريخي وسياسي معا. فإن للقوم وجهة نظر معروفة في موضوع (الإمامة الكبرى) تختلف عن وجهة النظر السنية، ولذلك فإن يوم عاشوراء أو أيام عاشوراء العشرة تعتبر موسما سنويا للتعبير عن وجهة النظر الشيعية دينيا وسياسيا. ومن يتابع طريقة الاحتفال بأيام عاشوراء عند مثقفي الشيعة، يجد مصداق ماذكرت حيث تلقى المحاضرات والدروس لبيان ذلك الموقف (انظر محاضرات المرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين بعنوان: (عاشوراء) كتاب (خطاب عاشوراء) للسيد حسن نصر الله.

وعليه ، فإن (عاشوراء) السنة تظل في إطارها الذي ذكرناه سابقا، بينما تتسع (عاشوراء) الشيعة لتشمل الإضافات الخاصة بالمذهب. ولكل وجهة هو موليها.

ممارسات الاحتفال

ممارسات الاحتفال بعاشوراء يختلط فيها ماهو مشروع، بما ليس مشروعا، سواء عند السنة أو الشيعة. وللفروض التمييز والتنبيه بالتي هي أحسن ، من دون الإيغال في النكير باي فريق، لأننا أمة واحدة، وما يعيب فريقا يعيب الأمة كلها حتى نتعاون بالحسنى والسماحة على تغييره.

فأما عند السنة، فالمشروع أساسا هو الصيام، مع تذكر المناسبة والعبر المستفادة منها. وعن ممارسة التوسعة، فإن الإمام البيهقي يؤكد أن الأحاديث التي وردت بشأنها ضعيفة، ولكن كثرتها تجيز الأخذ بما تدعو إليه. والتوسعة في مناسبات الصوم مألوفة.

ومن الإضافات غير الموثقة تحديد صلوات معينة، أو قراءات دينية مخصصة، فليس في ذلك توثيق يؤخذ به. والعبرة في العبادات بالتوقيف، وليس بالإضافات المبتدعة. وهناك بدع اجتماعية في الزيارات والزي والمأكولات، لا تبرير لها، وقد تؤول على غير معناها. ومن البدع السخيفة الاعتقاد بأن طائر الصرد (وهو أكبر من العصفور، وكانوا

يتشاءمون منــه) قـد صـام عاشـوراء. فكـل ذلـك ابتـداع ومعظمـه داخـل ضمـن الفولكلـور الاجتماعي الذي يلزم إلجامه.

اما عند الشيعة، فالصيام بالتخيير مقـرر. وإقامـة مجالس العـزاء مـع مـا يرافقها مـن المحاضرات عن مناقب الحسين وآل البيت واردة. ويسمى ذلك (بالقراية ـ تحريـف القـراءة). والعلماء يتعففون عن إثارة الفتن، او ذكر احد من الصحابة بغير ما يستحقه من التوقير. وقد كان الكميت رحمه الله، وهو صاحب (الهاشميات) المشهورة في مديـح آل البيـت، ينشد بانه يهوى عليا امير المؤمنين ولا يرضى بشتم احد وهذا هو مذهب فضلاء الشـيعة. ولكن لعامة الشـيعة ممارسـة نشير اليها ولا نفصلها، وهـي المواكـب الـتي تسير في الشوارع، ولها تسـميات هـي: موكـب اللطامـة (اي لطـم الصـدور)، وموكـب الزنـاجيل (اي اللطـم بالسلاسل)، وموكب التطبير بالقامات (اي القفز بالسيوف في الأيدي) وهي جميعا موضع استنكار مـن علمـاء الشيعة الأثبـات، الذيـن يفـهمون الدوافـع العاطفيـة للعامـة في إظـهار حزنهم واستنكارهم لقتل الحسين، ولكنهم يعرفون مالهذه الممارسات مـن مخـاطر بدنيـة وصحيـة، وبعدهـا عـن التعبـير المشـروع. ومـن هـؤلاء العلمـاء الإمـام الخوئـي في كتابـه (اسـتفتاءات الإمـام الخوئـي ـ المسائل الشرعية) وكذلـك الإمامـان الخمـيني والخـامنئي في فتويـين معـاصرتين معلنتـين. كمـا تـالفت جمعيـات إصلاحيـة لمواجهـة هـذه الممارسـات بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد رصد هذه الظاهرة بصراحة وإنصاف الدكتور إبراهيم الحيدري في كتاب نفيس بعنوان: (تراجيديا كربـلاء، سوسـيولوجيا الخطـاب الشـيعي) فليرجع إليه. وإنني أطري عمـل جمعيـات الإصلاح، لأن المشـكلة تحتـاج إلى معالجـة دينيـة وعقلية وعاطفية من داخل المجتمع الشيعي. وكثـرة اللغط حولهـا يثـير الفتنـة الطائفيـة بلا مبرر، ويصعب على العامة الفكاك من عقدتها.

دروس من عاشوراء

ومن المفيد ان يختتم هذا العرض لتاريخ عاشوراء ومضامينها والأحداث التي ارتبطت بها، باستخراج بعض الدروس والعبر، ومنها:

أ. تعظيم أيام الله، والاحتفاء بها بما شرع:

فعاشوراء، وعرفة، وليلة القدر، والعشر الأواخر من رمضان، وعشر من ذي الحجة، وغيرها. كلها من أيام الله المباركة، وهي مواسم للطاعة والعبادة، الأكف فيها مرفوعة، وابواب السماء مفتوحة ، فعلينا ان نغتنمها قبل ان تجف الأقلام، وتطوى الصحف. وقد ورد في الأثر ان لله في ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها. واحب الأعمال الى الله في هذه الأيام هي ما شرعه لها: إن بالصيام، وإن بالقيام، وإن بغير ذلك، والتزيد غير مطلوب، والانتقاص غير مرغوب.

ب. تاكيد موقف الاسلام الوفاقي من الرسالات السماوية:

ففي الوقت الذي ترفض بعض الأديان غيرها، نجد ان الاسلام هو الدين الوحيد الذي ينظر الى الرسالات السماوية وكتبها وانبيائها بأنها منظومة واحدة متتابعة الحلقات، والحلقة الخاتمة تمام على الذي احسن من قبل، وكتابها مهيمن على الذي سبقه باستيعابه وتكميله.

ونستفيد هذا الدرس من مقولة النبي(ص) لليهود في المدينة: «فنحن أولى بموسى منكم، وفي هذا السياق نزلت آية آل عمران الجامعة:٨٤ (قل آمنا بالله، وما انزل علينا، وما انزل على ابراهيم، وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون).

جـ - التقريب بين المذاهب الاسلامية ، والتقارب بين اتباعها :

وهذا الدرس استطراد لما سبقه، إذ لا يجوز الوفاق مع الغير، مع إهدار الوفاق بين ابناء البيت الواحد، فالمسلمون أمة واحدة، وقد اصطلحوا في اطار منظمة المؤتمر الاسلامي على اعتماد ثمانية مذاهب للرجوع إليها في التشريع، وهي المالكية، والشافعية، والحنابلة، والحنفية، والإمامية، والزيدية، والإباضية، والظاهرية. ومن الممكن التفاهم مع من وراءهم من اهل التوحيد من أمة محمد(ص).

وباعتبار تماس الاهتمام بعاشوراء من قبل السنة والشيعة، فمن المفيد ان نتذكر ان كثيرا من الخلافات بين هذين الفريقين قد بدأت سياسية، ثم تغلفت بأغلفة الفقه. والمفروض ان ما فات فات، وانه إذا صعب التقريب بين التعاليم، فلنجتهد في تحقيق التقارب بين الأتباع.

د- نفض البدع عن مناسباتنا الدينية

وقد المنا بطرف من بدع (عاشوراء) عند السنة والشيعة، فلنعمل كل في دائرته على نفض البدع عنها، ورفض ما قد يكون موضوعا من احاديث لتأييدها. واذا كان الرفض بعد التمحيص للتخصص من مهام العلماء، فإن المثقف العام يستطيع ان يستأنس بمقولة ابن خلدون في باب علم الحديث من مقدمته، (اذا رأيت الحديث يخالف الأصول، ويعارض المنقول ، ويناقض المعقول، فاعلم انه موضوع، وإن وثقوه ووثقوه) ولكن الرجوع الى تمحيص العلماء امن. فإذا تشنج متشنج وانكر الصيام في عاشوراء رددناه، والحكم بعد ذلك للتخيير. وإذا تساخف متساخف وقال: اكتحلوا في عاشوراء وتزينوا قلنا له هذا يوم استغفار لا كرنفال. وقس على ذلك.

وأخيرا

نسأل الله تعالى أن يعيد عاشوراء على المسلمين، وهم أكثر إحاطة بمعانيها التراكمية، واقدر على التسامح فيما بينهم بشان الاختلاف حول هذه المعاني بحكم التطورات التاريخية، وما عاشوراء إلا واحدة من المناسبات الدينية التي تتفاوت المواقف بشانها، فإذا كنا قد خرجنا منها للدعوة الى الوحدة فإن ديننا ومصالحنا والأخطار المحدقة بنا كل ذلك يحتم علينا ان نتوحد لنصبح كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

التعقيب

الاستاذ الدكتور عزالدين ابراهيم هو احد المفكرين الكبار الذين اكدوا على فكرة التقريب بين المذاهب الاسلامية، وعملوا لتركيزها، الى جانب العمل المتواصل لدفع عملية الحوار بين الاديان الى الامام. وهذا المقال التحقيقي يأتي في نفس السياق ممتازا بروح هادئة وموضوعية، ونحن اذ نعظم معه وقفة الامام الحسين(ع) البطلة ضد حكم طاغية منحرف هو يزيد، ونعلن حزننا الدائم على ماجرى على إبن رسول الله(ص) لنؤكد ان احياء ذكرى الحسين(ع) لا يعني الا احياء قيم الثورة على الظلم، وتعظيم معاني التضحية في سبيل العقيدة والاصلاح في الامة.

اما مسألة صيام يوم عاشوراء فهي مسألة فرعية قد لا تكون لها علاقة بالحادثة، وهي مسألة يختلف على استحبابها العلماء، لضعف واضح في مستنداتها، ولذا فالاقوال فيها متنوعة والاستنباطات مختلفة ولا ضير في ذلك، اما الممارسات بمناسبة عاشوراء فالبعض منها طبيعي مندوب إليه، لمواساة اهل البيت(ع) واحياء ذكراهم وقيمهم، والبعض منها تقاليد محلية معبرة عن ذلك، في حين يشط البعض عن الصواب ويدخل في حالات الافراط المرفوض.

واخيرا فاننا نحيي الاستاذ الكبير في فكره وعمله راجين له العمر المديد.

النموذج الثالث:

التقريب
بين المذاهب الاسلامية

أ. د . محمد عمارة

مفكر اسلامي من مصر

في الحديث عن التقريب بين المذاهب الاسلامية، هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التي يستخدمها الباحثون في هذا الميدان.. «فالتقريب» بين المذاهب غير «التوحيد» للمذاهب.. وكلاهما متميز عن «احتضان» جميع المذاهب والاستفادة من الملائم في احكامها واجتهادات مجتهديها.

ثم إن «المذاهب» قد يراد بها «المذاهب الفقهية».. وقد يراد بها «المذاهب الكلامية». لذلك، لابد من البدء بتحديد وتحرير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات.

«فالتقريب»: هو الانطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة، مع العدول عن نفي مذهب للمذاهب الأخرى، بالتعصب لمذهب واحد، ورفض ماعداه.. فهو ـ التقريب ـ تعايش بين المذاهب المختلفة، مع اكتشاف الإطار العام الجامع لها، ومناطق الاتفاق بينها، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف.

اما «التوحيد» بين المذاهب: فإنه يعني دمجها جميعا في مذهب واحد، ونفي قاعدة التعدد والتمايز والاختلاف..

وبين هذين المصطلحين يأتي «الاحتضان» والاستفادة من المذاهب المختلفة والمتمايزة، باعتبارها اجتهادات إسلامية في إطار علم واحد وحضارة واحدة ودين واحد، والنظر إلى الأحكام التي أثمرتها الاجتهادات المذهبية المختلفة باعتبارها التراث الواحد للأمة الواحدة، ومن ثم الاستفادة بالملائم منها، الذي يلبي حاجات تحقيق المصالح والضرورات المتجددة بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات والتقاليد والأعراف.. أي توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والاجتهادات من نطاق المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها.. ومفهوم «الاحتضان» هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات «التقريب».

أما مصطلح «المذاهب»، فإنه يطلق على المذاهب الفقهية، التي هي علم الفروع، واجتهادات الفقهاء في إطار الشريعة الإسلامية الواحدة، التي هي وضع إلهي ثابت عبر الزمان والمكان.. وقد يطلق هذا المصطلح ـ المذاهب ـ على المذاهب الكلامية، أي التصورات والاجتهادات التي أبدعها علماء أصول الدين في إطار العقائد الإسلامية، وخاصة «الألوهية» وصفات الذات الإلهية .. و«النبوات والرسالات» وما يتعلق بها من المعجزات.. و«فلسفة العلاقة بين الحق والخلق»، وما يتعلق بها من مكانة الإنسان في الكون، وأفعال هذا الإنسان .. الخ.

هذا عن ضبط مفاهيم ومضامين مصطلحات هذا المبحث من مباحث الفكر الإسلامي.

* * *

أما عن التاريخ الحديث للجهود والدعوات التي بذلت وقامت للتقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية، بهدف الخروج من التعصب لواحد منها ضد ماعداه، والاستفادة من كل الاجتهادات فيها، لتلبية احتياجات التشريع للمستجدات العصرية.. فلعل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ، ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) - في التقرير الذي كتبه لإصلاح القضاء الشرعي ـ أبرز هذه الدعوات في عصرنا الحديث، لاحتضان كل مذاهب

الفقه الإسلامي، والاستفادة من اجتهاداتها في القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية .. فلقد كانت الدولة العثمانية (٦٦٩ ـ ١٣٤٢هـ ، ١٢٩٩ ـ ١٩٢٢م) تلتزم المذهب الحنفي وحده، وبفقهه وحده يحكم القضاء ويفتي المفتون في ولاياتها، رغم تمذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة، الحنفي.. والمالكي.. والشافعي.. والحنبلي.. وللمذهب الحنفي وحده تم التقنين في «مجلة الأحكام العدلية» عام ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م .. فلما درس الإمام محمد عبده حال القضاء الشرعي بمصر، دعا ـ في التقرير الذي كتبه في نوفمبر عام ١٨٩٩م ـ إلى إصلاح حال هذا القضاء وفقهه.. ودعا إلى احتضان كل المذاهب الفقهية والاستفادة من اجتهادات جميع مجتهديها، لما في ذلك من فتح باب الاجتهاد ، والتيسير على الناس، وتلبية حاجات المستجدات (الأعمال الكاملة ج ٢، ص ٢٠٩ ـ ٢٨٨).

ولقد كانت حركة التقنين للفقه الإسلامي بمصر، في مقدمة الحركات التي وضعت دعوة الإمام محمد عبده في الممارسة والتطبيق.. ففي التعديلات التي أدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة ـ الأحوال الشخصية ـ تمت الاستفادة من المذاهب الفقهية المختلفة، بما في ذلك المذهب الجعفري ـ للشيعة الاثني عشرية ـ والمذهب الزيدي ـ للشيعة الزيدية ـ.

ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامي ـ موسوعة جمال عبد الناصر ـ اعتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادرها، واحتضنت أحكامها واجتهادات مجتهديها جميعا ـ وهي المذاهب السنية الأربعة. مع المذهب الجعفري ، والمذهب الزيدي، والمذهب الإباضي ، والمذهب الظاهري ـ. فكانت «للفقه المصري» - إذا جاز التعبير ـ الريادة في انتهاج هذا الطريق الذي لا يكتفي فقط «بالتقريب» بين المذاهب الفقهية، أي رفض التعصب لمذهب واحد ضد ماعداه، وإنما تجاوز «الموقف المصري» هذا «التقريب» إلى «احتضان» كل المذاهب، والعمل على الاستفادة من الملائم الملبي لاحتياجات الأمة ومستجدات العصر من اجتهادات المذاهب الفقهية جميعا.

وفي اربعينيات القرن العشرين، قامت في مصر «جماعة التقريب بين المذاهب»، مركزة جهودها على مذاهب السنة والشيعة الإمامية بوجه خاص.

ولقد راس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد علي علوبة باشا (١٢٩٢ ـ ١٣٧٥ هـ ، ١٨٧٥ ـ ١٩٥٦).. وكان في مقدمة مؤسسيها والعاملين في ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء الأعلام: الشيخ عبد المجيد سليم (١٢٩٩ ـ ١٣٧٤هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ، ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م) والشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ، ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م) والشيخ محمود شلتوت (١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ ، ١٨٩٣ هـ ـ ١٩٦٣م) والشيخ محمد المدني (١٣٢٥ ـ ١٣٨٨ هـ ، ١٩٠٧ ـ ١٩٦٨م) والشيخ علي الخفيف (١٣٠٨ ـ ١٣٩٨هـ ، ١٨٩١ ـ ١٩٧٨م) والشيخ عبد العزيز عيسى (١٣٢٧ ـ ١٤١٥هـ ، ١٩٠٩ ـ ١٩٩٤م) والشيخ حسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ، ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م) والشيخ سيد سابق.. وغيرهم من ائمة علماء السنة.

كما ضمت هذه اللجنة ـ في إطار «دار التقريب»- كوكبة من كبار علماء الشيعة الاثني عشرية.. من مثل آية الله اقا حسين البروجردي.. والسيد محمد تقي الدين القمي ـ الذي تولى الأمانة العامة للجماعة ـ والسيد محمد حسين آل كاشف الغطاء.. والسيد شرف الدين الموسوي.. والسيد محمد جواد مغنية.. والسيد صدر الدين شرف الدين.. وغيرهم.

وكانت مجلة «رسالة الإسلام» ـ لسان حال هذه الجماعة ـ من ابرز المنابر الفكرية التي تجسدت فيها الجهود التي بذلت في هذا اللون من التقريب بين المذاهب الاسلامية، وفي إزالة الشبهات والعقبات من ميادين العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص.

كذلك، كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من ابرز ما تمخضت عنه اجتهادات هذا اللون من التقريب بين المذاهب الفقهية.. فلقد كتب عن مقاصد هذه الدعوة، وجهود هذه الجماعة فقال: «إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الإسلام والسلام.. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة

المستقيمة على نهج الإسلام، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، ويرباون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول، فلا يزعم احدهم أنه أتى بالحق الذي لا ريب فيه، وان على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن يقول: «هذا مذهبي، وما وصل إليه جهدي وعلمي، ولست ابيح لأحد تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من اين قلت ما قلت، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي، والحديث إذا صح فهو مذهبي».

«ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، واسهمت منذ اول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها بامور كثيرة، ثم تهيأ لي بعد ذلك، وقد عهد إلي بمنصب مشيخة الأزهر، أن اصدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الأثني عشرية.. وقرت الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لاهدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة. وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنها وانا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها في الحين بعد الحين، فيما ابعث به من رسائل إلى المستوضحين، أو أرد به على شبه المعترضين، وفيما انشئ من مقال ينشر او حديث يذاع، أو بيان ادعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول اصول الاسلام ، ونسيان الضغائن والأحقاد، التي اصبحت - والحمد لله - حقيقة مقررة تجري بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة، بعد أن كان المرجفون في مختلف عهود الضعف الفكري والخلاف الطائفي والنزاع السياسي يثيرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل، وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين ارباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية، سنيها وشيعيها، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لفلان وفلان» (كتاب مشيخة الأزهر) للشيخ علي عبد العظيم . ج ٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨.

هكذا تحدث الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، عن فكرة التقريب بين المذاهب

الفقهية الإسلامية، والتقريب بين أرباب هذه المذاهب ـ اي بين علماء السنة والشيعة.. وعن شمول هذه الدعوة لكل المذاهب الفقهية الثابتة الأصول، المعتمدة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين. وعن جواز التعبد بفقه جميع هذه المذاهب دون استثناء.. كما حدث عن الجدل الذي دار حول فتواه بهذا الخصوص.. وعن تبني الأزهر الشريف لهذا الاتجاه في التقريب بين مذاهب الفقه الاسلامي.

اما نص الفتوى التي اصدرها الشيخ شلتوت، والتي اثارت جدلا فكريا حول هذا الموضوع.. فلقد جاءت ردا على سؤال نصه:

«إن بعض الناس يرى انه يجب على المسلم لكي تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح، ان يقلد احد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الراي على إطلاقه، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإثني عشرية مثلا؟»..

فكان جواب الشيخ شلتوت على هذا السؤال:

«إن الإسلام لا يوجب على احد اتباع مذهب معين، بل نقول: إن لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا، والمدونة احكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب ان ينتقل الى غيره ـ اي مذهب كان ـ ولا حرج عليه في شيء.

إن مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب اهل السنة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وان يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب او مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز ـ لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد ـ تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات» - كتاب (مشيخة الأزهر) ج ٢ ص ٧٨.

ذلك هو نص فتوى الشيخ شلتوت في التقريب بين المذاهب الفقهية. وفي جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعا دون تعصب لمذهب ضد ماعداه. وجواز التعبد والتعامل ـ من قبل أهل السنة ـ وفق فقه المذهب الجعفري للشيعة الإمامية الإثني عشرية على وجه التحديد.

ورغم أن هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيما وواسعا ومستمرا في الدوائر الشيعية، ورفعت من مقام الشيخ شلتوت في هذه الدوائر، حتى لقد تم الاحتفال به وبآية الله البروجردي في طهران عام ٢٠٠١م.. ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه الى مختلف اللغات، إلا انه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أي مرجع من مراجع الشيعة، ولم يفت واحد من هؤلاء العلماء الأعلام بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعي وفق فقه المذاهب الفقهية السنية، حتى يكون التقريب متبادلا بين الأطراف المتعددة، وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثاني!

بل إن دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ الصادر بعد الثورة الإسلامية ـ قد ذهب إلى الحد الذي جعل للمذهب الجعفري وحده هو منهب الدولة، ونص على أن المادة التي تقرر ذلك لايجوز تغييرها فيما يطرأ على مواد هذا الدستور من تغييرات!.. الأمر الذي يجعل قضية التقريب بين المذاهب الفقهية قائمة على ساق واحدة، ومن طرف واحد حتى كتابة هذه السطور!..

وإذا كانت لنا من ملاحظات على هذه الجهود العلمية العظيمة التي بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، والتي أثمرت ثمرات طيبة في ميدان التقريب بين السنة والشيعة.. وهي الجهود التي يحاول مواصلتها ـ قدر الإمكان.. وعلى نحو من الأنحاء ـ «المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية» بطهران، فإن هذه الملاحظات يمكن إجمالها في هذه النقاط.

أولا: إن توجيه جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى التقريب بين المذاهب

الفقهية، هو جهاد في غير الميدان الحقيقي الأولى بالجهاد.. أو على أحسن الفروض - هو جهاد في الميدان الأسهل، الذي لا يمثل المشكلة الحقيقية في الخلافات بين المذاهب الإسلامية.. وبين السنة والشيعة على وجه التحديد - فالفقه هو علم الفروع.. وكلما زاد الاجتهاد والتجديد في الفقه الاسلامي كلما تمايزت الاجتهادات في الاحكام الفقهية. فتفتح الآفاق أمام تمايزات الاجتهادات هو الذي يحرك العقل الإسلامي المجتهد، وليس التقريب فضلا عن التوحيد لهذه الاجتهادات فقط يزيد احتضان الاجتهادات المذهبية الفقهية المتنوعة، والاستفادة بالملائم من احكامها للتيسير على الناس، ولمواكبة المستجدات.

وثانيا: إن الفقه هو علم الفروع.. وتمايز الاجتهادات فيه واختلاف المجتهدين في احكامه لم يكن في يوم من الأيام يمثل مشكلة لوحدة الأمة، بل كان مصدر غنى وثراء للعقل الفقهي والواقع الإسلامي على السواء.. وفي الفقه كان الأئمة والعلماء، المختلفون في المذاهب، يتتلمذ الواحد منهم على من خالفه في المذهب.. بل ورأينا في تراثنا من العلماء الأعلام من يجمع المذاهب المتعددة في فقهه وعطائه، فيفتي وفق مذهب، ويقضي وفق مذهب ثان، ويدرس كل المذاهب لطلاب علمه ومريديه!.

فاختلاف المذاهب الفقهية هو ظاهرة صحية في الفكر الاسلامي، وهو مصدر من مصادر الغنى والثراء لهذا الفقه، ولا يمثل أية مشكلة لوحدة امة الاسلام.. ومن ثم، فليس هو الميدان الحقيقي والأولي للجهاد الفكري في التقريب بين مذاهب المسلمين.

وثالثا: إن الميدان الذي كان ولايزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة - التي هي فريضة إلهية وتكليف قرآني - هو ميدان بعض الاجتهادات المذهبية في المذاهب الكلامية الاسلامية.. وعلى وجه التحديد احكام «التكفير» و«التفسيق» التي نجدها في تراث هذه المذاهب، والتي ارتبطت بقضية الإمامة على سبيل الحصر والتحديد.

إن اختلاف مذاهب الفقه - السنية والشيعية - حول «نكاح المتعة» مثلا، لا يمثل مشكلة تقصم وحدة الأمة الاسلامية.. لكن الاجتهادات التي تكفر الصحابة الذين أخروا

خلافة علي ابن أبي طالب هي التي تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات.

ومثلها الاجتهادات التي تكفر الشيعة في بعض كتب التراث السني، كما هو الحال عند شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ ، ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م) وبعض الأئمة «السلفيين».. ويضاف إلى هذه المسائل بعض الآراء التي توهم التجسيد والتشبيه للذات الإلهية.. وبعض المواقف الحادة في ميدان التصوف والصوفيين.

فالتقريب بين المذاهب، والذي يمثل الميدان الحقيقي للجهاد الفكري المطلوب، هو الذي يوحد الأمة في الأصول والثوابت، وفي أمهات العقائد والمسائل الفكرية.. وهذا هو ميدان علم الكلام.. والجهد التقريبي ـ الغائب والمطلوب ـ هو نزع «الألغام الفكرية ـ التكفيرية» التي تقصم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذهب من المذاهب، لأن التكفير هو نفي للآخر، يقصم وحدة الأمة.. وهو خطر لا علاقة له بالفقه الذي هو علم الفروع، ولا بالاجتهادات والاختلافات الفقهية التي هي ظاهرة صحية، تثمر الغنى والثراء في الأحكام، واليسر والسعة للأمة كلها في تطبيق هذه الأحكام.

وإذا كانت هذه «الألغام الفكرية ـ التكفيرية»، التي تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء في بعض الحوزات العلمية، وفي بعض الدوائر الفكرية السنية.. كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة.. إذا كانت هذه «الألغام» قد غدت راسخة، بل و«متكلسة»!.. فإن الموقف الممكن والعملي إزاءها يمكن تصوره فيما يلي:

١- تحديد نطاق هذه «الألغام الفكرية ـ التكفيرية».. وأغلبها ـ لحسن الحظ ـ نابع من نقل القضايا الخلافية من نطاق «أصول الاعتقاد»، وتحويلها ـ من ثم ـ إلى عوامل «نفي.. وتكفير» للمخالفين..

٢- اعتماد منهاج وسنة التدرج في تطبيق خطة إزالة هذه «الألغام الفكرية ـ التكفيرية» من الكتب التراثية، وخاصة الذي يدرس منها في الحوزات العلمية والجامعات

الإسلامية، وذلك بحذفها من الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه.. وفق المنهاج المتعارف عليه في (تهذيب) كتب التراث..

٣- الاتفاق ـ في إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ على منع تدريس هذه (الاجتهادات التكفيرية) في الحوزات والجامعات الإسلامية التي تكون عقول العلماء في مختلف بلاد الإسلام.. ولنا في منهاج الأزهر الشريف النموذج والقدوة في هذا الميدان، فهو يحتضن كل مذاهب الأمة ـ الفقهية والكلامية ـ سلفها وخلفها على حد سواء، مع استبعاد التكفير والتفسيق لأي مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية ، حفاظاً على وحدة الأمة، التي هي فريضة إلهية، تعلو فوق اجتهادات المجتهدين ومذاهب المتمذهبين.

وصدق الله العظيم : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون) [١]

ذلك هو الميدان الحقيقي للجهاد الفكري في التقريب بين المذاهب الإسلامية.. إنه علم الكلام.. علم الأصول في الاعتقاد.. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية، التي تتخصص في الفروع، واختلافاتها رحمة واسعة، ولا تفسد الود بين المسلمين.

التعقيب:

اننا لنقدر للاستاذ المفكر الكبير روحه التقريبية العالية ونتوقع ان يمدنا بافكاره النيرة ولنا حول هذا المقال بعض النقاط.

الاولى: ان العمل الكبير الذي انجزه الامام الشيخ شلتوت لم يكن هو السماح للفرد السني بالتمذهب بالمذهب الجعفري، فليس هذا (اي مسألة الانتقال من مذهب إلى آخر) هو المهم، اذ من يثبت لديه ارجحية مذهب على آخر فانه ينتقل اليه دون انتظار لفتوى احد، ولكن الرقم الصعب الذي حققه ـ رحمه الله ـ هو كسر هذا الحاجز النفسي بين

---

(١) الأنبياء: ٩٢.

السنة والشيعة والذي كان يترك أثره في التشكيك والريبة، وبالتالي في التباعد بينهما، حيث اكد اسلامية الشيعة وانتهالهم من المصادر الاسلامية. وعلماء الشيعة بدورهم اكدوا مرارا هذه الحقيقة بحق اخوانهم اهل السنة، فهذه فتوى الامام الخميني(رحمه الله) بلزوم التحاق الايرانيين بصلاة الجماعة في المسجدين والاستشكال في صلاة الجماعة في محل اقامتهم دليل ذلك.

الثانية: ان ما جاء في دستور الجمهورية الاسلامية من جعل المذهب الجعفري مذهب الدولة لا يتنافى مطلقا مع مهمة التقريب بين مذاهب المسلمين، ذلك ان الدستور يجب ان يكون المرجع في المسائل الخلافية التي ترتبط بالجانب الاجتماعي العام والتي لا تتحمل خلافا (بخلاف السلوكات الشخصية التي يعمل فيها اتباع كل مذهب وفق مذهبهم).

وحينئذ لا مناص من اتباع مذهب الاكثرية وهو مافعله الدستور الايراني، وهو نفس الحل الذي طرحه المرحوم الشيخ ابو الأعلى المودودي حين ووجه بمسالة اختلاف المذاهب كعقبة امام قيام الحكم الاسلامي، فاعتماد المذهب الجعفري من قبل الدولة الاسلامية الايرانية جاء معتمدا على عامل الأكثرية السكانية (الساحقة) لهذه البلاد، وليس تجاوزا لمذاهب المسلمين الأخرى، ولذا عملت الدولة وسعها على تعزيز فعاليات تلك المذاهب في مناطق وجودها كالنشاط الحوزوي، والحركة الثقافية كترجمة مؤلفات علماء المذاهب الأربعة كمؤلفات الاستاذ الشيخ يوسف القضاوي، حفظه الله ـ مثلاً ـ التي انتشرت بشكل واسع في ايران، وغيرها من مؤلفات علمية قيمة.. ولقد نمت الحوزات العلمية للمذاهب الأربعة في مناطق المسلمين السنة، في الجمهورية الاسلامية كما، وكيفا ، بشكل لم يشهد له تاريخ ايران مثيلا.. كما ان دور اتباع المذاهب السنية في الحياة العامة للبلاد لا يختلف مطلقا عن دور غيرهم في الانتخابات العامة او المشاركة في المجالس البرلمانية، والحياة الثقافية او غيرها ، رغم كونها اقلية بالنسبة لسكان البلاد..

الثالثة: وبخصوص موقف أئمة الشيعة الأمامية من اتباع المذاهب المسلمة الأخرى،

فهو صريح بضرورة اشاعة المودة والتآلف والتعارف معهم، والحرص على اشاعة المعروف والتواصل بين المسلمين كما هي سيرة سائر الأئمة من أهل البيت(ع) مع المسلمين، حتى ان الامام الصادق(ع) دعا اصحابه الى ان الصلاة معهم كالصلاة مع رسول الله(ص) قطعا لدابر الخلاف والقطيعة بين المسلمين، ونجد في وصايا الامام جعفر بن محمد الصادق(ع) الى شعبة الكثير من هذه المفاهيم كما ورد في «تحف العقول» لابن ابي شعبة الحراني، ونستطيع ان نجد في دعوة أهل البيت(ع) وعلماء مدرستهم الموقف الصريح الواضح لوحدة المسلمين، وتنبيههم ونبذ الفرقة بينهم، وتألفهم، والوقوف في وجه حالات التطرف والتفسيق لاصحاب الرأي الآخر، كما يتضح ذلك في كتاب «الفصول المهمة لتأليف الامة» للأمام السيد شرف الدين الذي جمع في ذلك الكتاب القيم أروع الروايات التي تحث على وحدة الامة والمسلمين تحت راية القرآن والسنة الشريفة، كما نجد ذلك صريحاً في كتاب «الدعوة الاسلامية للوحدة بين أهل السنة والأمامية» للمرحوم الشيخ ابو الحسن الخنيزي رحمه الله. ان الروح التي اشاعها العلماء المجاهدون من اتباع اهل البيت(ع) تمثل أروع المواقف الرسالية المخلصة لجمع الصفوف واحترام المذاهب المسلمة الاخرى واحتضان اتباعها اخوة في الدين والمصير.

الرابعة: ان التقريب يشمل كل نواحي الحياة الفكرية والعقائدية والفقهية العملية، فيجب العمل في كل المجالات لتحقيق (تعايش بين المذاهب المختلفة مع اكتشاف الاطار العام الجامع لها ومناطق الاتفاق بينها، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف) كما عبر الاستاذ عمارة في مطلع المقال. اما التكفير والتفسيق والتبديع فهو المرفوض وخصوصا عبر عملية الزام القائل بلوازم قوله ـ كما نتصورها نحن ـ.

ونحن نتفق مع الاستاذ في لزوم اتباع الموقف العملي المقترح.

النموذج الرابع:

هل التقريب بين السنة والشيعة.. ممكن؟!

د. عبد الله النجار

كاتب ومفكر من مصر

لم يعد الوقت كما كان في الماضي يتسع لاستيعاب ركام الخلاف المذهبي أو اختلاف الراي بين المسلمين، لأنهم كانوا بعيدين عن مرمى المخاطر، ولم تكن هناك كمائن تدبر لهم بليل لإذلالهم والاستيلاء على مقدراتهم وخيرات بلادهم، وربما لم تكن مطالب الحياة وضغوطها المادية قد وصلت عند هؤلاء الذين يمثلون اليوم مصدر الخطر الأول للإسلام إلى الذروة التي دفعتهم الآن لكي يهيموا في الأرض على وجوههم مدججين بالأسلحة كما تهيم الوحوش شارعة أنيابها في مناحي الغابة بحثا عن فريسة، فكانوا في غنى على النطاق الأرضي الذي يقيمون عليه، وكان كل فريق من البشر مهموما بحاله، يعمل داخل أرض ، ويتعامل مع غيره معاملة الند لنده.

في مثل هذا الجو، يمكن أن يستوعب استقرار الأحوال ركام الخلاف في الراي، حتى لو احتد واشتد، لكنه يزيد الخلاف ولا يحد من أثره، ولهذا تضخم الخلاف بين أهل السنة والسنة حتى قرأنا ضمن فتاوى الإمام «محمد عبده»، فتوى عن حكم صلاة الشافعي خلف الحنفي، كما تضخم بين السنة والشيعة على نحو أكبر حتى أصبح المصدر الأول للعداء والخصومات، والدافع الأكبر للفتن والمواجهات، وإعلان الحروب بين الأمم، ولم يحظ خلاف مذهبي بالقسط الأوفر من الكره والعداء كما وصل الخلاف بين السنة والشيعة،

إلى حد ان كل فريق منهم كان يرمي الآخر بالكفر والمروق من الملة، وما يتبع ذلك من استحلال الدماء واستباحة الحرمات، حتى صار ذلك سنة معروفة، وسلوكا معهودا لم تبدا وطاته في الزوال إلا في عهد الخليفة الخامس «عمر بن عبد العزيز» رضي الله عنه، فقد كان الخطباء قبل ان يولى الخلافة يختمون خطبتهم بالدعاء على الإمام «علي» رضي الله عنه.. ويلعنونه على المنابر قبل أن ينزلوا عنها بلحظات ليصلوا بالمسلمين صلاة الجمعة، ولعن الإمام «علي» كان تجسيدا لعمق المأساة التي ولدها الخلاف في الراي بين السنة والشيعة، لما للإمام «علي» عند الشيعة من مكانة تكاد ترقى عند بعض الغلاة منهم الى درجة النبوة حتى زعموا أن الوحي قد اخطاه، والمعتدلون منهم يشهدون في صلاتهم وعند كل اذان، ان عليا ولي الله، فإذا لعن من شانه كذلك عند اهل مذهب معين، وفي مثل هذا الوقت والمكان المقدسين يكون ذلك دليلا على ان بين المذهبين ما هو ابعد من الخلاف، والصق بالعداء، وهذا ماكان.

فلما ولي «عمر بن عبد العزيز» الخلافة صعد المنبر، وختم خطبته بما اصبح سنة متبعة عنه إلى يومنا هذا، وهو قراءة الآية الكريمة، «إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون» ثم نزل من على المنبر لإمامة المصلين بعد الانتهاء من قراءتها، فظن الحاضرون انه قد نسي المعهود، ولم يلعن «عليا» كما هو متبع، وصاحوا في وجهه السنة، السنة يا امير المؤمنين، فتعجب لأنهم لم يفهموا دلالة الآية الكريمة التي تلاها على مسامعهم، وفيها ما يامر بالعدل، وينهى عن الفحشاء والمنكر، وانهى بذلك تلك العادة الحمقاء، فبدات حدة الخلاف تخف واخذ أسلوب الخلاف المذهبي يتشح بقدر من وقار التخاطب، وادب التناول، لكن الخلاف وان كانت حدة التعبير عنه قد خفت، إلا أنه ظل قابعا في أعماق النفوس على نحو يثير الشجن ويدعو الى الحسرة، ويدعو العقلاء إلى إيجاد مخرج يضع اختلاف الراي في مساره الصحيح، وكان أن وجدت فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وانشئت دار التقريب في

القاهرة منذ العام ١٩٤٧ لتكون منطلقا لتلك الفكرة وقاعدة لها، يجتمع فيها اصحاب المذاهب المختلفة، ويلتقي المسلمون من بلادهم المتفرقة منها على مائدة العلم والفكر، حيث يجلس الحنفي بجانب المالكي والشافعي والحنبلي بجانب الشيعي الإمامي والزيدي، يتحاورون ويتناقشون في مجلس علم وادب وتصوف وفقه، تسودهم روح المحبة والمودة وزمالة التعليم والدراسة.

وكان في مقدمة المؤمنين بفكرة التقريب السيد محمد تقي الدين القمي، احد كبار علماء الشيعة، وشيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمد المراغي، والشيخ مصطفى عبد الرازق، وإن كان تأييدهما لفكرتها قد اقتصر على التأييد بالراي والعلم فقط، ربما لأن مبدا التطبيق لم يكن قد استوى على ساقه بعد، اما شيخ الأزهر الأسبق الشيخ عبد المجيد سليم فقد أسهم بكل طاقته وجهده في تأييدها ، وتابعه علماء اماجد وائمة كبار من مصر وايران عاصروه أو حملوا الرسالة من بعده، منهم الشيخ علي الخفيف، والشيخ عبد العزيز عيسى، والشيخ محمد المدني والشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق ومن الجانب الشيعي السيد محمد حسين الكاشف الغطاء والسيد شرف الدين الموسوي، والسيد محمد جواد مغنية، وصدر الدين شرف الدين وغيرهم.

وتولى رئاسة جماعة التقريب المصلح «محمد علي علوبة باشا» وقد ايد تلك الجماعة الرئيس «محمد انور السادات» وعاونها وقت أن كان مشرفا على المؤتمر الإسلامي بالقاهرة، قبل ان يكون رئيسا لمجلس الأمة، ثم رئيسا للجمهورية، وهو الذي ساعدها على إصدار أول مجلة لها وهي مجلة «رسالة الإسلام» ولم يبخل عليها بالمال والجهد الأدبي، والعون في كل مجال، وقد تبنت هذه المجلة فكرة التقريب وشحنت لها نخبة من الأقلام المشرعة القوية التي يحملها اعلام وائمة لهم ذكرهم وصيتهم وشهرتهم من السنة والشيعة، كالشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والشيخ عبد الحليم كاشف الغطاء، والشيخ محمد رضا الشبيبي ، والشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد

البهي، والشيخ محمد عبد الله وزاد والشيخ عبد المتعال الصعيدي، والدكتور احمد أمين والدكتور علي عبد الواحد وافي، والأستاذ عباس محمود العقاد، والشيخ محمود فياض، وتولى رئاسة تحريرها الشيخ محمد المدني.

وفي اول مقال لشيخ الأزهر الأسبق الشيخ عبد المجيد سليم بعنوان «بيان للناس» قال: إن الأحكام نوعان، ثابتة وهذه يجب الإيمان بها، ولا يسوغ الاختلاف فيها، لأنها لا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة.

والثاني احكام اجتهادية مرتبطة بالمصالح التي تختلف باختلاف ظروفها، وهذه راجعة إلى الفهم والاستنباط، فما كان منها قطعي الثبوت والدلالة لا يجوز فيه الاختلاف كذلك. وما دون ذلك يسوغ فيه الاختلاف، وهذا الاختلاف غير مذموم في الإسلام، مادام المختلفون مخلصين في بحثهم باذلين وسعهم في تعرف الحق واستبيانه، بل إنه يؤدي إلى كثير من مصالح الأمة، وقد كان اصحاب رسول الله(ص) وتابعوهم والأئمة عليهم الرضوان يختلفون ويدفع بعضهم حجة بعض، ويجادلون بالتي هي احسن، ويدعون إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم نسمع ان احدا منهم رمى غيره بسوء، او قذفه ببهتان، وهكذا ولدت فكرة التقريب ونمت شجرتها.

وممن ترسموا خطى شيخ الأزهر الأسبق المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم الذي يعد اول من تبنى التقريب، هو الشيخ محمود شلتوت، حيث أخلص الفكرة وآمن بها إيمانا لقي هوى في نفسه ورغبة في قلبه، وانطلق في دعوته لها بحماس يعضده أن الشيعة يبلغون اكثر من ستين مليون مسلم يقيمون في بلاد إسلامية كثيرة مثل إيران والعراق واليمن وسوريا ولبنان، والدول الخليجية وباكستان والهند، وهم يؤمنون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر ويؤدون أركان العبادات كما يؤديها اهل السنة، ولا يوجد بين الفريقين خلاف إلا في امور فرعية لا يخرج صاحبها عن نطاق الإسلام، ومع ذلك ضخم الاستعمار تلك المسائل ليتمكن من تمزيق شمل المسلمين.

يقول الشيخ «شلتوت» رحمه الله: «إنني لا أبيح لأحد تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي، والحديث إذا صح فهو مذهبي، ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة». وأصدر فتوى بجواز التعبد على مذهب الشيعة وهو شيخ للأزهر، وبفضله وجد الفقه الشيعي طريقه إلى القوانين المصرية، سيما الأحوال الشخصية والوصية الواجبة والإجازة، والى الأزهر الشريف وكلياته، فاستقر في كلية الشريعة ليكون احد المذاهب المقارنة التي لا يكتمل البحث الا بها في مجال الرسائل العلمية التي تعد للحصول على درجتي التخصص «الماجستير» والعالمية «الدكتوراه» ، ومن أقواله: إن الحكمة، ضالة المؤمنين، فإذا وجدها على لسان كافر، فإن كفره لا يمنع من الانتفاع بها والاستفادة منها، لأن الحق قائم بذاته، فما بالنا إذا كان الراي صادرا عن مذهب من المذاهب الإسلامية التي تستمد احكامها من مصادر التشريع الغراء.

وقد أدى اهتمام الشيخ «محمود شلتوت» بفكرة التقريب إلى أن يكون عند اهل السنة والشيعة رمزا من رموزها. واستحق أن تقيم له جمهورية إيران الإسلامية ملتقى دوليا لتكريمه مع الإمام البروجردي، وتم توجيه الدعوة لهذا الملتقى للأزهر الشريف، الذي رشح خمسة عشر عالما من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية برئاسة الشيخ «محمود عاشور» وكيل الأزهر، والدكتور محمد رجب البيومي، والشيخ علي فتح الله، والشيخ سيد وفاعجور، والدكتور محمد رافت عثمان، والدكتور نصر فريد واصل مفتي الجمهورية السابق وقتئذ، والدكتور محمود عمارة، والدكتور محمد إبراهيم الفيومي، والدكتور محمد كمال إمام، وكاتب هذه الدراسة، وعقد اللقاء بإيران ونزلنا بفندق «ازادي» الشهير بطهران، وبدأت جلسات الملتقى متتابعة، متلاحقة لا تسمح بالتقاط الأنفاس أو الراحة إلا في فترة النوم الليلية فقط، أما مدار اليوم فإنه مشحون بالجلسات واللقاءات والجولات.

بدات الجلسة الافتتاحية برئاسة المرحوم سماحة آية الله الحكيم، الرئيس السابق للمجلس الإسلامي الأعلى للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.: وبدات بتلاوة آي الذكر الحكيم ، ثم كلمة ترحيب ألقاها سماحة الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ثم كلمة الافتتاح لسماحة آية الله هاشمي رفسنجاني رئيس الجمهورية السابق، ثم كلمة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر.

ثم كلمة حفيد آية الله العظمى البروجردي السيد جواد العلوي البروجردي، ثم كلمة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ علي الدواني، وهو مؤرخ معاصر.

بدات الجلسة الأولى بعد استراحة وغداء برئاسة آية الله الشيخ التسخيري أحد علماء الشيعة المعروفين بمصر والعالم، وفي الجلسة الثانية دار محور الحديث عن الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب وتحدث فيها الأستاذ فهمي هويدي، والشيخ التسخيري.

ثم توالت الجلسات والكلمات والبحوث حول هذا المضمون من الوفد الأزهري، فتحدث الدكتور محمد إبراهيم الفيومي والدكتور نصر فريد واصل والدكتور محمد رأفت عثمان، وكاتب هذه السطور الذي كان قد اعد بحثا عن الإمام محمود شتلوت وعنايته بالفقه المقارن والتقريب بين المذاهب والشيخ علي فتح الله، ومن الجانب الشيعي تحدث آية الله الشيخ عميد الزنجاني، والشيخ عبد الكريم بي آزار الشيرازي، وآية الله رضا الأستادي عضو مجلس صيانة الدستور، وآية الله الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني، وآية الله الشيخ جعفر السبحاني أستاذ الحوزة العلمية بمدينة «قم» المقدسة، وآية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي الزعيم والمرجع الديني للشيعة الإمامية.

ولم تخرج محاور البحوث والكلمات عن دائرة الوحدة الإسلامية، وقضية فلسطين والتقريب بين المذاهب الإسلامية، وكيفية تفعيلها.

وقد لوحظ أن علماء الشيعة يتمتعون بعقلية منظمة، وحديثهم مرتب ترتيبا

منطقيا ولغتهم هادئة، وأسلوبهم راق، وحجتهم حاضرة، ولهم فهم متميز وقدرة على الجدال والمناظرة ولغتهم العربية فصيحة سليمة يصعب أن تقع لمتحدث على خطأ نحوي، كما أن لهم صبرا على الدراسات النصية القديمة التي تقوم على دراسة المتون والحواشي، حتى أصبح لهم باع عريض في ذلك، ولم يقتصر تناولهم للعلوم الإسلامية التقليدية على مأثورات الأئمة السابقين من كبار فقهائهم، بل أضافوا إليها دراساتهم التأصيلية، حتى أنهم أبلغونا بأنهم قد قطعوا شوطا كبيرا في مجال الدراسة الأصولية المقارنة، التي تتناول مادة «أصول الفقه» بالمقارنة، وقد وصلنا نحن بالأزهر الشريف إلى الدراسات الفقهية المقارنة، أما الدراسات الأصولية المقارنة فلم نشرع فيها بعد، وإن كنا قد أعجبنا كثيرا بنشاط الشيعة الفقهي والعلمي في هذا المجال، وحبذا لو طبقناه في كلية الشريعة بجامعة الأزهر، وقد زرنا مرقد الإمام «الخميني» الذي يقع ضمن ساحة الشهداء في منطقة جنوب طهران بمسافة قصيرة، ويقوم على مرقده مسجد ضخم تعقد فيه اللقاءات السياسية العليا، وهو مجهز لذلك، والمرقد يتوافد عليه آلاف الشيعة يوميا من الرجال والنساء ، ومقامة عليه مقصورة ضخمة كتلك التي بمشهد الإمام الحسين والسيدة زينب رضي الله عنهما، وبها فتحة ترمى فيها الأوراق النقدية على غرار صناديق النذور في مساجد مصر، وعلى باب المسجد الذي يضم المرقد تمثال للإمام الخميني يظهر وجهه فيه غائرا، وليس مجسما على هيئة التماثيل التي نراها، ويضم موقع المرقد ومشهده الضخم ساحة الشهداء، وهي قبور عديدة للشهداء والموتى بنيت من الرخام الراقي بأسلوب أنيق، وكتبت عليها أسماء المتوفين ومقام على رأس القبر شاهد مرتفع بمستوى قامة الشخص واقفا يعلوه صندوق ذو واجهة زجاجية يمكن فتحها عند الحاجة، وتضم صورة أنيقة للمتوفى وهو في ريعان شبابه، وبعض الأشياء التي كان يحبها أو التي تذكر به، ومصحفا ، وربما نبذة عن حياته أو على الأقل تاريخ مولده ووفاته، وقد دفن في ساحة الشهداء أعضاء مجلس الثورة الإسلامية الذين اغتيلوا جملة واحدة في أثناء اجتماع لهم ، حيث

تتراص قبورهم متوالية باسلوب هندسي متشابه، تشكل كتابة أسماء الشهداء عليه منظرا خلابا، والإيرانيون اوفياء لموتاهم، حيث يزورون تلك القبور ويجلسون حول قبر ميتهم في صمت وحزن وابتهال وبكاء، يدل على مدى التواصل العاطفي بين الأحياء والموتى عندهم.

كما زرنا، مدينة «قم» المقدسة التي تبعد عن طهران حوالي مائة وخمسين كيلومترا اذ توجد الحوزة العلمية، وهي أشبه بمدينة سكنية ضخمة بنيت على الطراز الفارسي، يتوسطها ميدان فسيح يجتازه طلاب العلم في التنقل الى جنبات المبنى التي تأخذ شكلا دائريا حوله، ومن أهم معالم الحوزة العلمية، مسجد السيدة «معصومة» بنت الإمام موسى الكاظم، بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن ابي طالب(ع).

ويعتبر هذا المسجد تحفة معمارية فريدة، وله باب ضخم من الفضة الخالصة وبداخله مقصورة كبيرة فوق مرقدها، ويتوافد لزيارتها أعداد غفيرة من الإيرانيين رجالا ونساء ويكاد يشبه مسجد السيدة «معصومة» الجامع الأزهر في عصوره الذهبية حيث يتجمع الطلاب في ساحات على هيئة حلقات حول شيوخهم واساتذتهم يراجعون عليهم الكتب القديمة، على نمط ماكان يجري في الأزهر سابقا، ومازال ذلك هو الأسلوب المتبع في الحوزة العلمية.

وتبلغ الحلقات العلمية أكثر من خمسين حلقة يتراوح عدد كل منها ما بين طالب او طالبين على الأقل، وعشرة طلاب أو عشرين على الأكثر، فإذا ما دخلت ساحة المسجد العلمية تكاد تسمع لطلاب العلم دويا كدوي النحل، وتجد اهتماما وإقبالا على العلم لا نظير له، وقد جلست بجانب طالب يقرأ على شيخ من كتاب، ولما تناولته منه وجدته: «نهاية السؤول في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول» للعالم المصري «جمال الدين عبد الرحيم الأبنوي الشافعي» المتوفي سنة ٧٧٢هـ وهذا يدل على اهتمامهم بالدراسات

وعدم التعصب لشيوخهم.

وبالجملة فإن الحوزة العلميـة اشبه بمولـد علـم، طلاب كثيرون وطالبـات يغـدون ويروحون في جد واهتمام انتقالا من مبنـى إلى مبنـى، ومـن حلقـة إلى حلقـة، وتعتـبر هـي المركز العلمي الأكبر في إيران.

مـن معـالم مدينـة «قـم» مكتبـة «اية الله المرعشـي» الـذي يعـد رمـزا لحـب الكتـب والمخطوطات حتى إنهم يحكون عنه في حب الكتب والمخطوطات قصصـا، منـها أنـه اشـترى إحدى مخطوطاته باجر صلاته اربع سنوات لدى احد الأئمـة، ويوجـد بمكتبتـه الـتي بلـغ من حبه لها انه اوصى بأن يدفـن في مدخلها، فـلا تكـاد تضـع قدميـك علـى اعتابها حتـى تفاجا بأن قبره أمامك مباشرة، فـلا تجـد مفـرا مـن أن تقـرا لـه الفاتحـة، ويقـال إنـه سـجن بسبب وقوفه ضد السفارة البريطانية ليمنعها من تهريب احد المخطوطات ، ويوجـد بـهذه المكتبة واحد وثلاثون الف مجلد، وخمسون الف كتاب كلها مخطوطات نادرة، وقد انشا بها مركزا عالميا لترميم المخطوطات والكتـب القديمـة باسـلوب علمـي فـائق، ويضـم هـذا المركـز خـبراء مـن مختلـف انحـاء العـالم في الكيميـاء والعلوم وغيرهمـا مـن العلوم المتصلـة بترميم المخطوطات بالمكتبة، ولأي جهة علمية تطلب منها ذلك.

ومـن معـالم إيـران مدينـة «طـهران» الـتي تعتـبر مثـالا متمـيزا في فـن المعمـار، حيـث تصطف الأشجار في الشوارع على الجـانبين امـام المحـال التجاريـة، وبمحـاذاة أعمـدة الإنـارة، فتختلط انوارها باوراق الأشجار في منظر بديع، وبين ارصفـة المارة، والشـارع مـن الجـانبين توجد مسارات للمياه العذبة التي تجري فيها مياه الثلـوج القادمـة مـن اعـالي الجبـال، عندمـا تذوب فتجري في تلك القنـوات علـى جـانبي الشـارع تحت الأشـجار، ومـن اراد أن يمـر علـى الرصيف عليه ان يجتاز معابر أنيقة مقامة بالتوالي علـى مسـافة امتـار وربمـا غطـت تلـك القنوات المائية في مساحة طويلة أمام بعض المحال التي تريد أن تسهل قدوم العملاء إليها.

وقد احزننا انهم يطلقون على اكبر شوارع طهران اسم قاتل المرحوم الرئيس محمد

انور السادات، وقد عبرنا عن حزننا لذلك، لكنهم وعدوا بالتغيير القريب ولا ادري اتم ذلك التغيير ام لا، والإيرانيون يحرصون على حماية ضيوفهم حرصا بالغا، فلا يتركونهم في اي توجه، حتى عند التسوق وفي الجولات الحرة، تخوفا من أن يمسهم أذى او يعتدي عليهم احد، ولهم تحذيرات واضحة بذلك، فلا تستطيع أن تتجول حرا بإرادتك وكيفما تريد، بل بترتيب مسبق، وحراسة معدة سلفا، كما انهم لا يحبون عيش الترف، فكل شيء بمقدار حتى في الفنادق الفاخرة ، وسيارات المواكب الرسمية افخر من السيارات الشعبية عندنا قليلا، وهم يصلون الظهر والعصر جمعا وقصرا ركعتين كل يوم، ويجهرون بالقراءة فيهما ومن يبلغ عن الإمام لا يصلي مع المصلين، بل يقف في مواجهتهم، وظهره للقبلة فإذا انتهى الإمام من القراءة يقول: الله أكبر ركوع، فيركع الإمام والمصلون، الله أكبر قيام، الله أكبر سجود، الله أكبر قيام الله أكبر سجود حتى تنتهي كل حركات الصلاة ، فإذا ما انتهى المصلون صلى هو.

وتقام صلاة الجمعةالرسمية في جامعة «طهران» حيث يخطب الجمعة فيها كبار قادة الدولة مثل رئيس الجمهورية، أو المرشد الديني أو رئيس مجلس صيانة الدستور السيد هاشمي رافسنجاني رئيس الجمهورية السابق وامثالهم، والمصلون يتجاوبون مع الخطيب عندما يتناول في خطبته امرا سياسيا ، أو يبين الراي في موقف دولي، وهنا ترتفع الأصوات بالهتاف تأييدا له، وتعبيرا عن الرضا بما يقول كرغبة شعبية لهم.

وقد التقينا بالسيد محمد باقر الحكيم، وهو فقيه كبير واصولي له مؤلفات عظيمة في الفقه والأصول، واهدانا عددا من تلك الكتب، كما التقينا بالسفير المصري «محمد رفاعة الطهطاوي » حفيد المفكر الإسلامي والعربي الكبير «رفاعة الطهطاوي» في مقر السفارة المصرية التي تحفل بالأركان ذات الموروثات الشعبية التقليدية ، وبها عدد من السجاجيد الضخمة والنادرة، ولاتزال اطقم الطعام بها تحمل التاج الملكي، وكان قد أعد للوفدين المصري والايراني عشاء بمقر السفارة، وهو على صلة وثيقة بقيادات ايران،

ويحظى منهم بالاحترام الكامل والثقة الكبيرة لهمته ونشاطه واتقانه للتقاليد الدبلوماسية الناجحة.

كما زرنا جامعة الإمام الصادق بطهران وهي في مبناها أشبه بحديقة غناء تضم قصورا صغيرة هذه القصور هي الكليات ، فاذا خرج الطلاب منها او سعوا إليها ساروا بين تلك الحدائق الجميلة فتنشرح صدورهم للدروس وتجدد الهواء في صدورهم فتستيقظ عقولهم للبحث والتحصيل.

وقد لقينا ترحيبا بالغا من رئيسها سماحة آية الله مهدوي كني ، الذي ألقى كلمة ترحيبية كان فيها مثالا للإيرانيين في ترتيب الأفكار وسلاسة التناول وسلامة اللغة العربية، حتى يصعب عليك أن تقتفي لمتحدث منهم خطا لغويا أو نحويا، مع الأدب والهدوء والدبلوماسية في الحديث ، وهي ما تتألف من كلية العلوم الإسلامية والدعوة وكلية العلوم الإسلامية والحقوق ، وكلية العلوم الإسلامية والسياسة، وكلية العلوم الإسلامية والاقتصاد، وكلية العلوم الإسلامية والإدارة، ومعهد دراسات الثقافة والإعلام، ويوجد الى جانب قسم الطلاب «قسم للطالبات» وتضم الجامعة خدمات جامعية راقية مثل مركز الأبحاث والدراسات الإنسانية، والمكتبة المركزية للحاسوب والمعلوماتية والإعلام ، ومجلة جامعية باسمها «صفحات جامعية» ومجلة «نداي صادق» للبنات ومجلة «فصلية الأبحاث».

ولهذه الجامعة صلة بالجامعات الإسلامية والعربية، كما أن لها صلة وثيقة بجامعة الأزهر، إذ تم إبرام اتفاق للتعاون بين الجامعتين في ٢٨ نوفمبر ١٩٩٩ ، يتكون من «١٥» مادة لتبادل الأساتذة والأبحاث والمؤلفات واللقاءات والاعتراف بالشهادات بين الجامعتين، وغير ذلك من أوجه التعاون العلمي، وهذا يدل على أن الخلاف بين المذهبين إنما هو خلاف صناعي ابتكره أعداء المسلمين للتفريق بينهم، وإذا كان للعداء الناجم عن الخلاف المذهبي أو اختلاف الراي متسع فيما مضى، فلم يعد له متسع اليوم، وليس أمام المسلمين

إلا خيار واحد هو التعاون والتآلف والتآزر، وباختصار شديد، الوحدة التي أمر الله بها في كتابه وسنة نبيه(ص) والتي اثبتت الأيام انه لا حياة للمسلمين بدونها.

التعقيب:

ونحن نقدر للدكتور النجار هذا الحس الوحدوي التقريبي ونرجو له كل موفقية. ونود ان نشير الى بعض النقاط بايجاز:

١- ان الامامية يرفضون الغلو ويعتبرونه كفرا ولايصنفون الغلاة في اطار التشيع فضلا عن الاسلام.

٢- ان عدد الشيعة اليوم كما تبين الاحصاءات يصل الى حوالي مائتي مليون مسلم.

٣- ان الصلاة الرباعية عند الشيعة لاتقصر الا في السفر كما ان الحكم لديهم في صلاتي الظهر والعصر هو الاخفات في القراءة وجوبا.

وهناك ملاحظات اخرى الا ان كل ذلك لايؤثر على جمال هذا التقرير، فنسأل الله تعالى له التوفيق.

ونختتم الفصل بذكر بيان موجه الى الامة الاسلامية عموماً والى شعبنا العراقي خصوصاً حول افتراءات (الزرقاوي) وعصابته التكفيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد البشرية محمد النبي الامين وآله الطاهرين وصحبه الاكرمين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد.

ففي خضم الاحداث الدامية التي يمر بها عراقنا الجريح، من تكالب الاعداء وتنفيذ المؤامرات على وجوده وهويته وترويع نسائه واطفاله وشيوخه، الى قتل شبابه ونهب خيراته وتحويله الى ساحة تجارب عسكرية، وضرب ابنائه بعضهم بالبعض الآخر لينشغلوا بانفسهم ويسود العدو الامريكي الصهيوني الغادر، وتتفتت وحدته، وينمحي الوئام السائد بين افراده،

وفي معمعان الهجوم الثقافي لاعداء الامة على هويتها وثقافتها وتعليمها وعملها الخيري ونشاطاتها الانسانية ووحدتها المذهبية والمصيرية، وذلك عبر التحديات الكبرى التي تواجهها من قبيل تحديات العولمة والعلمانية والتخلف والتفرقة المذهبية والعنصرية والقومية واللغوية والتاريخية والجغرافية وغير ذلك،

وفي جو الهجوم العسكري الذي تواجهه هنا وهناك، يطلع على شعبنا العراقي بيان من قبل شخص يسمى بـ (ابي مصعب الزرقاوي) ليدعي انه يحمل راية الجهاد ضد العدو الامريكي، وانه يمثل صرخة الجهاد الاسلامي وقيادة الابطال الفرسان وما الى ذلك، ولكنه بدل ان يصب جام غضبه على امريكا راس الاستكبار العالمي والدول الحليفة لها، ويدعو لوحدة جحافل الشعب العراقي بكل قومياته ومذاهبه واديانه بوجه العدو المحتل، وبدل ان يوحد المسلمين خلف الرافضين للاحتلال ، بدلا عن كل ذلك ركز على سب الجميع

سنة وشيعة، واتهام الرافضين للاحتلال علماء ومثقفين وآخرين غيرهم بشتى التهم الممزقة والمفرقة التي تبعث الحزازات وتعيد عهود التاريخ الدامي الملأى بالآلام والدموع وتكفير الآخرين وغير ذلك.

واننا اذ نحذر من مثل هذه المحاولات المشبوهة والتي تخدم العدو المحتل الغاشم لنذكر ببعض الامور التي ركز عليها البيان آنف الذكر ليعرف الجميع الحقيقة بكل موضوعية:

الأمر الاول:

اننا قبل كل شيء نؤيد ماذكره البيان من الاهداف الامريكية الدنيئة من قبيل:

أ- الطمع بثروات البلاد.

ب- الرد على الصحوة الاسلامية واسكات صوتها ونشر ثقافتها المنحطة

ج- تحقيق الحقد الصليبي الدفين

د- توفير الامن لربيبتها اسرائيل

ونضيف اليها اهدافاً أخرى من قبيل:

تحويل العراق الى قاعدة استعمارية لتنفيذ المخططات الصهيو- امريكية في كل المنطقة، وضرب كل المواقع التي تقف امام نفوذ امريكا وغير ذلك.

ولكن ماالذي يضمن للامة الاسلامية ان تواجه هذا المخطط الاستكباري العنيد غير عودتها الى اسلامها والى وحدتها الاسلامية، وتنفيذ استراتيجية واعية تستوعب بها الضربة، ومن ثم تنطلق لبناء قوتها في كل المجالات واستعادة مكانتها الحضارية، امة شاهدة على الناس.

فاذا كنا نغرقها بالصراع المذهبي، ونتهم كل رجالاتها بالعمالة، ونستعدي بعضها على بعض، ونعيدها الى عصور الظلام والدماء والتكفير، فهل نكون قد ساهمنا في مقاومة العدو او اننا سنكون قد مهدنا له الطريق؟! اليس من الاجدى ان ندعو الى وحدة هذه الامة وتكاتفها، وان نتمسك جميعاً بالقرآن والسنة وان اختلفت اجتهاداتنا في الاستفادة منهما فلا مانع من ذلك بعد التزامنا بضوابط الاجتهاد، وحينئذ نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه. اما على الصعيد العملي فيجب ان يكون الموقف واحداً لا اختلاف فيه، وذلك في كل قضايا الامة المصيرية . لنستطيع تحقيق مانصبو اليه.

الامر الثاني:

ان اكبر تهمة يوجهها البيان للشيعة هي تهمة سب الصحابة والصالحين وهي تهمة يتنزه عنها العقلاء والواعون بل يركز الشيعة بخطهم العام على احترام الصحابة، والجيل الطليعي الاول، تبعاً لأئمتهم من اهل البيت(ع) وتعليماتهم التي شهد لها المسلمون جميعاً بالسمو، فيدعو الامام زين العابدين(ع) للصحابة ويصفهم بانهم المنتجبون. ويقول الامام علي(ع) (في الخطبة -٩٧- من نهج البلاغة) واصفاً الصحابة (لقد رايت اصحاب محمد صلى الله عليه وآله فما ارى احداً يشبههم منكم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً..) والشيعة يرددون كلام نهج البلاغة ويعشقونه لان علياً كان تلميذ رسول الله(ص)، وربيب القرآن، وإمام الغر المحجلين، واحد الصحابة الاجلاء. هذا عمل الواعين، ودعك من عمل الجاهلين.

ورغم هذا الاتهام ونفور البيان مما يدعي بالسب واللعن فانه مشحون بالسب واللعن والهمز واللمز والتهم، فهو يردد مثلا مايلي:

- وصف الشيعة بالرافضة وهو مصطلح عصور الصراع المقيت.
- ادعاء ان التشيع - كما يقول - دين لا يلتقي مع الاسلام (هكذا بكل بساطة) في حين يصرح كبار العلماء بان نقاط الالتقاء بين الشيعة والسنة تتجاوز الـ ٩٠٪ من المساحة العامة للاسلام.
- انهم الحاقدون على الاسلام، المستبيحون دماء المسلمين
- انهم العدو، والكفرة، والقتلة وانهم يحبون التتار وانهم وانهم..

ويصف العالم الزاهد السيد السيستاني بانه امام الكفر.

بل نجد البيان يسب علماء السنة الداعين الى رص الصفوف، ويرميهم باشد الصفات من قبيل وصفهم بـ: (الحثالات من اهل السنة) (الرادة الكذبة) (علماء السوء) (المخدرون، المخذلون) الى غير ذلك من اقذع الالفاظ واسخفها. فهل ينسجم هذا السلوك مع ادعاء الدفاع عن كرامة الصالحين ومجد الامة وعلائها وخلقها النبيل؟!

الامر الثالث:

ويفترض البيان في الشيعة تهما واوصافا باطلة، ثم يعمل على التحريض عليهم، ووصفهم بانهم العدو الحاقد على الامة، والكفرة الذين يجب تطهير الارض منهم، وما الى ذلك. انه يطلق عليهم التهم الكثيرة وهو ترديد لتهم رددها المزقون من قبل، وفي طليعتها القول بتحريف القرآن.

والحقيقة التي اكدها علماؤهم انه كان هناك في الماضي من يتجه الى مثل هذا القول الباطل، ولكن التيار العام من علماء الشيعة رفض ذلك، واقام اقوى الادلة على عدم التحريف، ومنهم العالم العراقي الكبير الامام الخوئي فهو بعد ان يستدل بقوة على بطلان القول بالتحريف يقول في كتابه البيان (صفحة ٢٣٣)، «وقد صرح بذلك ـ عدم التحريف ـ رئيس المحدثين الصدوق، وقد عد القول بعدم التحريف من معتقدات الامامية، ومنهم شيخ الطائفة.. الطوسي ونقل القول بذلك ايضا عن شيخه علم الهدى السيد المرتضى» ثم ذكر اجلة العلماء الشيعة كالمرحوم الطبرسي، والشيخ جعفر كاشف الغطاء، والعلامة الجليل الشهشهاني وغيرهم، وختم ذلك بقوله (بل المتسالم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف).

فما الداعي اذن لطرح هذه التهمة من جديد، واصدار الفتاوى التكفيرية من قبل من ليس اهلا للفتوى والعلم.

وقد ايد فتواه التكفيرية بنصوص لابن تيمية وغيره وهي ايضا مبنية على تهم من هذا القبيل، أو موجهة لبعض الغارقين في الباطنية، او تعبر عن وضع سياسي خاص. فلماذا نتناسى كل ذلك ونعيد الكرة ونكفر خمس المسلمين؟ ولمصلحة من هذا التكفير، واهدار الدماء الاسلامية؟ الا يصب ذلك لصالح العدو؟

الامر الرابع:

ينظر البيان الى الواقع اليوم ويصب جام غضبه على الشيعة ويصفهم بانهم الممالئون لامريكا والصهيونية، وان امريكا تسعى لدعمهم، وان اسرائيل تتودد اليهم، وانهم ممثلين بفيلق (بدر) قتلوا المجاهدين من اهل السنة واحتلوا مساجدهم، وان الايرانيين الشيعة عذبوا اسرى اهل السنة الذين قاتلوا مع صدام ضد الجمهورية الاسلامية، وان الشيعة مزقوا وحدة الامة، الى آخر ذلك من قائمة التهم الطويلة.

ولكن البيان تناسى الحقائق التالية:

اولا: ان الجمهورية الاسلامية الايرانية بقيادة الامام الراحل الخميني (رحمه الله تعالى) كانت حصيلة ثورة اسلامية هزت قلاع الكفر والاستكبار العالمي وفي طليعته الاستكبار الامريكي، واطاحت بنظام الشاه العميل الامريكي الاسرائيلي، وحولت ايران من قلعة امريكية اسرائيلية الى اكبر سند للامة الاسلامية والقضية الفلسطينية، كما فجرت صحوة اسلامية عالمية اقضت مضاجع الكفر العالمي، وكان من نتائجها المقاومة البطلة في

افغانستان ولبنان، والانتفاضة الباسلة في فلسطين، وعودة الامل الى الجماهير الاسلامية في انحاء العالم بالغد الاسلامي. ويعجز القلم عن تبيان آثارها الايجابية على الصحوة، وعن توضيح الضربات وانماط الحصار السياسي والاقتصادي والهجوم العسكري ضدها، ومن ذلك هجوم النظام الصدامي عليها نيابة عن الاستكبار العالمي، في حرب دامت ثماني سنوات ، وقتلت وشردت مئات الالوف من المسلمين بايدي اناس يتباكى البيان على اسرهم ويدعي تعذيبهم في حين ان الشعب الايراني المسلم اعتبرهم ـ رغم مافعلوه ـ ضيوفا لديه.

ومواقف الجمهورية من قضايا المسلمين في ارجاء العالم الاسلامي واضحة ويكفي ان نشير الى البوسنة وكشمير وغيرها لنذكر بانها مناطق غير شيعية، ولكنها حظيت باكبر الاهتمام.

ثانيا: ان حزب الله البطل واكثريته من الشيعة دافع عن كرامة الامة ومرغ انف امريكا بالتراب وارغم العدو الصهيوني على الهزيمة لاول مرة في حياته الاجرامية. ولا نجدنا بحاجة للتفصيل لوضوح الامر. ولكن البيان اغفل هذه الحقيقة تماما .

ثالثا: فيلق بدر وجهاده ضد صدام خلال سنوات المحنة امر يعرفه كل العراقيين، ومواقفه الرائعة في خدمتهم لا يمكن ان تغطيها هذه التهم الباطلة، وشهداؤه الابطال ينيرون تاريخ العراق الحديث.

رابعا: اما جهود الجمهورية الاسلامية وعلماء الشيعة في مجال وحدة الامة فلا غبار عليها. ويكفي ان نذكر هنا بان الوحدة الاسلامية هي خط استراتيجي ثابت في دستور الجمهورية الاسلامية ومسيرتها العملية، وانه لم تصدر فتوى واحدة من عالم شيعي معتد به بتكفير اهل السنة رغم فتاوى التكفير المستمرة عبر العصور ضدهم.

خامسا: ان المقاومة الاصيلة في العراق اليوم بتنوع اساليبها لا تقتصر على فئة دون فئة، بل يعمل العراقيون جميعا على طرد المحتل وعلى كل الصعد، فلا احتكار للمقاومة ولا معنى لاتهام هذا او ذاك بالرضوخ . واننا لنعتقد ان امريكا مالم تلملم جيوشها وترحل فانها ستغرق في الوحل العراقي القاتل لها ولمن وقف معها.

الامر الخامس:

يفتخر البيان بانه صنع مجزرة الجمعة في النجف الاشرف وقتل سيد المجاهدين اية الله السيد باقر الحكيم ومعه عشرات القتلى ومئات الجرحى. ولعله تغافل عن جريمة

كبرى اخرى وهي ضربه الملايين المتجمعة في عاشوراء لاحياء ذكرى استشهاد الامام الحسين(ع) (والذي يدعي الدفاع عنه)، وذلك بصواريخ تسعة أوقعت ايضا المئات من الاصابات والقتلى.

ولا ندرى بم نصف هذه الاعمال الاجرامية وكيف ننسبها للجهاد؟

ان عظمة الجريمة تتجلى حينما نعرف من هو آية الله السيد محمد باقر الحكيم علما وجهادا ودعوة ونذرا للحياة في سبيل الاسلام وكرامة الشعب العراقي المهدورة على يد صدام المجرم.

وهي حقائق يعرفها الشعب العراقي و لا تحتاج الى توضيح.

انها عمليات اقل مايقال فيها الوصف بالارهاب الاعمى الذي لا يرضاه الاسلام، ولا ندري كيف يلقى صانعوها الله تعالى يوم الجزاء؟

واخيرا نتساءل:

اليس ايقاع الفتنة في صفوف الشعب العراقي يخدم الاهداف الامريكية الاسرائيلية؟

اليس القيام بقطع راس الرهينة الامريكية يبرر لامريكا جرائمها البشعة في سجن ابي غريب؟

اليس اتهام الجمهورية الاسلامية الايرانية، والتحامل عليها، وهي الدولة الوحيدة التي ترفض الكيان الاسرائيلي كله، وترفض حتى اقامة العلاقات السياسية مع امريكا، اليس ذلك خدمة كبرى لأمريكا واطماعها في المنطقة؟ والاسئلة كثيرة كثيرة، وهي تجعلنا نطمئن بان اليد الامريكية الاسرائيلية هي التي تصنع هذه الالعوبة الجهادية والله تعالى اعلم.

(وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والعاقبة للمتقين)

صدق الله العلي العظيم